دراسات في

تاريخ المشرق الإسلامي

إعداد

الأستاذ الدكتور

صلاح سليم طايع

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية

وعميد كلية الآداب بقنا

جامعة جنوب الوادي

كلية الآداب

قسم التاريخ

العام الجامعي

٢٠٢٢/٢٠٢١

دراسات في تاريخ المشرق الإسلامي
الأستاذ الدكتور: صلاح سليم طايع
كلية: الآداب
قسم: التاريخ
الفرقة:
عدد الصفحات: صفحة
تاريخ النشر: ٢٠٢١

الرموز المستخدمة

نص للقراءة والدراسة

أنشطة ومهام

أسئلة للتفكير والتقييم الذاتي

فيديو للمشاهدة

رابط خارجي

تواصل عبر مؤتمر الفيديو

دراسات في
تاريخ المشرق الإسلامي

الأستاذ الدكتور
صلاح سليم طايع

المحتويات

المقدمة ٨

الفصل الأول ٩
الحركات المَذْهَبِيَّة الهَدَّامَة

تدريبات الفصل الأول ٢٠

الفصل الثاني ٢٣
المشرق الإسلامي قبيل قيام الدَّولَة العَبَّاسِيَّة

تدريبات الفصل الثاني ٥٢

الفصل الثالث ٥٣
الدول المستقلة في المشرق الإسلامي

تدريبات الفصل الثالث ٨٤

الفصل الرابع ٨٥
الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية

تدريبات الفصل الرابع ٨٤

الفصل الخامس ١٣٥
الغزو المغولي وسقوط الخلافة العباسية

تدريبات الفصل الخامس ١٤٩

الصور والأشكال

شكل (١) ١٢

شكل (٢) ١٢

شكل (٣) ١٣

شكل (٤) ١٥

شكل (٥) ١٦

شكل (٦) ١٨

شكل (٧) ٢٠

شكل (٨) ٢١

شكل (٩) ٢٧

المحتويات

الصور والأشكال

شكل (١٠) ٣٠
شكل (١١) ٣١
شكل (١٢) ٣٣
شكل (١٣) ٣٧
شكل (١٤) ٤٠
شكل (١٥) ٤١
شكل (١٦) ٤٢
شكل (١٧) ٤٣
شكل (١٨) ٤٧
شكل (١٩) ٥٠
شكل (٢٠) ٥١
شكل (٢١) ٥١
شكل (٢٢) ٥٥
شكل (٢٣) ٥٧
شكل (٢٤) ٥٩
شكل (٢٥) ٦١
شكل (٢٦) ٦٢
شكل (٢٧) ٦٤
شكل (٢٨) ٦٩
شكل (٢٩) ٧١
شكل (٣٠) ٧٣
شكل (٣١) ٧٤
شكل (٣٢) ٧٨
شكل (٣٣) ٧٩
شكل (٣٤) ٨١
شكل (٣٥) ٨٧

الصور والأشكال

شكل (٣٦) ٨٨
شكل (٣٧) ٨٩
شكل (٣٨) ٩١
شكل (٣٩) ٩٣
شكل (٤٠) ٩٣
شكل (٤١) ٩٥
شكل (٤٢) ١٠١
شكل (٤٣) ١٠٦
شكل (٤٤) ١١١
شكل (٤٥) ١١٦
شكل (٤٦) ١٢١
شكل (٤٧) ١٢٥
شكل (٤٨) ١٢٧
شكل (٤٩) ١٣١
شكل (٥٠) ١٣٣
شكل (٥١) ١٣٨
شكل (٥٢) ١٤٢
شكل (٥٣) ١٤٤
شكل (٥٤) ١٤٦

الفيديو

فيديو (١) ١٣٧

فيديو (٢) ١٤١

فيديو (٣) ١٤٧

المراجع والمصادر ١٥٠

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين، سيدنا محمدٍ وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين. وبعد،،،

توفر على دراسة الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي عبر عصورها المختلفة عددٌ كبيرٌ من العلماءِ والباحثين، وقدموا لنا في هذا المجال أعمالاً لها قيمتها وأصالتها العملية، ورغم تعدد الدراسات وتنوعها ما بين مؤلفاتٍ وبحوثٍ، إلا أنه لا تزال هناك حاجةً إلى المزيد من المؤلفاتِ والبحوث العربية في هذا المجال، مما دفعني إلى تأليف هذا الكتاب، تناولت فيه الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي.

وعرضت فيه تاريخ عددٍ من هذه الدويلات منذ ميلاد دولهم، وأهم الأحداث الداخلية والخارجية، وعلاقتهم بالخلافة العباسية، وعلى الرغم من الجهد المتواضع المبذول في هذا الكتاب.

هذا وقد بذلت فى إخراج هذا الكتاب بهذه الصورةِ الجهد المضنى، وأملى أن أكون قد أفلحت فى إعطاء العصر العباسى الأهمية التى يستحقها، سواءً ما يتعلق بجانبه السياسى، أو ما يتصلُ بجوانبه الحضارية.

وكما قال ابن خلدون فى مقدمته: «إن غاية العمران هى الحضارة والترف، وأنه إذا بلغ غايته، انقلب إلى الفساد، فينسى الناس عصر البداوة والخشونة كأن لم يكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية، بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنوه من النعيم ونضارة العيش، فيصيرون عيالاً على الدولة، ومن جملة النساء والولدان والمحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، فإذا جاء المُطالِب لهم لم يقاوموا مدافعته».

وعسى أن أكون قد أحرزت بعض النجاح، وآمل من الله العلي القدير أن يمن عليَّ بنعمة الصحة والعافية، وأن ينال هذا الكتاب رضا الله ورضا الجميع.

والله ولى التوفيق،،،

أ.د. صلاح سليم طايع
عميد كلية الآداب بقنا
جامعة جنوب الوادى

الفصل الأول

الحركات المَذْهَبيَّة الهَدَّامَة

الفصل الأول
الحركات المَذْهَبيَّة الهَدَّامَة

الأهداف:

عزيزي الطالب .. بعد الإنتهاء من دراسة هذا الفصل ينبغي عليك أن تكون قادرًا على أن:

(١) تتعرف على أهم الحركات الدينية الهدامة في العصر العباسي الأول.
(٢) تشرح جهود الخلفاء العباسيون في القضاء على الزندقة.
(٣) توضح أثر إنتشار الزندقة في العصر العباسي الأول.

مقدمة:

قامت في العصر العَبَّاسي الأول العديد من الحركات الدِّينِيَّة، التي حاول زعماؤها إحياء نِحَل وديانات وثَنِيَّة قديمة, بهدف نشر الإلحاد والرَّذِيلَة بين النَّاس، وقتل روح الإيمان بالدِّين الإسلامي، مِمَّا هدد الدَّولَة العَبَّاسِيَّة واستقرارها, إلا أن الخُلَفَاء العَبَّاسيين قد وقفوا موقفاً حازماً من هذه الحركات, وتصدوا لها بكل حزمٍ وقوة, وجردوا إليها الحملة تلو الحملة, محاولين التَّخَلُّص منها والقضاء عليها, ومن أهم هذه الحركات الدِّينِيَّة الهَدَّامَة:

حركة الزَّنَادِقَة:

انتشرت حركة الزَّنْدَقَة في العصر العَبَّاسي الأول, وكانت من أشد الحركات التي أصابت الأُمَّة الإسلامية وأخطرها, وكان أغلب الزَّنَادِقَة الذي ظهروا في هذا العصر من بلاد فارس, مِمَّا يدل على أن إسلامهم كان ظاهرياً فقط, وأنهم ظلوا على عقائدهم القديمة, محاولين إعلانها كُلَمَّا أتيحت لهم الفرصة لذلك, فانتشرت الزَّنْدَقَة حتى وصلت بيوت الوزراء وكبار رجال الدَّولَة, إلا أن الخُلَفَاء العَبَّاسيين قد تصدوا لتلك الحركة بكل جدٍ وعزيمة، محاولين القضاء عليها لإدراكهم مدى الخطورة التي تكمن في نفوس هؤلاء الزَّنَادِقَة على مستقبلِ الدَّولَة الإسلامية والدِّين الإسلامي الحنيف.

وقد ظهرت الزَّنْدَقَة بصورة واضحة في عهد الخليفة المَهْدِي العَبَّاسي الذي حمل على عاتقه القضاء عليها بالحوار تارةً وبالقتل تارةً أخرى, يقول المَسْعُودِي: «وأمعن المَهْدِي في قتل الملحدين والمداهنين عن الدِّين في أيَّامه, وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لَمَّا انتشر من كتب ابن ديصان ومرقيون مِمَّا نقله عبدالله بن المُقَفَّع وغيره, وترجمت من الفَارِسِيَّة والفهلوية إلى العَرَبِيَّة, وما صنفه في ذلك ابن أبي العرجاء عجرد ويحيى بن زياد وظيغ بن إياس من تأييد المذاهب اللمانية والمرقيونية فكثر بذلك الزَّنَادِقَة, وظهرت آراؤهم في النَّاس, وكان المَهْدِي أول من أمر الجدليين من أهل البحث بتصنيف الكتب على الملحدين مِمَّن ذكرنا من المجاحدين وغيرهم, وأقاموا البراهين إلى المعاندين، وأزالوا شبه الملحدين».

وكان الخليفة المَهْدِي أول من نَظَّم إدارةً مهمتها تتبع الزَّنَادِقَة وقتلهم, على رأسها صاحب الزَّنَادِقَة, وأول من تولى هذه الوظيفة عُمَر, ولَمَّا توفي سنة ١٦٨هـ / ٧٨٥م, عين بدلاً منه مُحَمَّد بن عيسى بن حمدويه, كما أن المَهْدِي أعد هيئة علمية لمناظرة الزَّنَادِقَة, وأوصى بتأليف الكتب للرد عليهم وحججهم, وتعريف النَّاس بخطورتهم وآرائهم الهَدَّامَة على الإسلام والمسلمين.

وظل الخليفة المَهْدِي طول فترة حكمه يتتبع الزَّنَادِقَة محاولاً القضاء عليهم، ففي سنة (١٦٧هـ / ٧٨٤م) جَدَّ في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق

وكان من بين من اتُهِمَ بالزَّنْدَقَة في عهد المَهْدِي بَشَّار بن بُرْد[1] الذي دفع به إلى صاحب الزَّنْدَقَة حدوه, وقال له: اضربه ضرب التلف, وكذلك صالح ابن عبدالقُدُّوس البصري[2] الذي كان مشهوراً بالزَّنْدَقَة, وله مع أبي الهُذَيل العَلاف مناظرات فقد أمر المَهْدِي به فحبس ثم قُتل.

وقد بلغ من شِدَّة حرص المَهْدِي على القضاء على الزَّنَادِقَة أن يوصي ولي عهده الهادي بتعقبهم وتخليص الأُمَّة الإسلامية من شرورهم الهَدَّامَة, ولَمَّا توفي الخليفة المَهْدِي وتولى الهادي سنة (١٦٩هـ / ٧٨٥م) سار على وصية أبيه, وشَمَّر عن ساعديه لتعقب هؤلاء الزَّنَادِقَة المفسدين حتى أنه قال: «أَما لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها شيئاً».

شكل (١) الخليفة المَهْدِي العَبَّاسي

شكل (٢) بَشار بن بُرد

(١) بَشَّار بن بُرْد (ت١٦٧هـ/٧٨٤م) العُقيلي بالولاء، أبومعاذ: أشعر المولدين على الإطلاق. أصله من طخارستان ونسبته إلى امرأة (عُقيلية) قيل إنها أعتقته من الرق، وكان ضريراً، نشأ في البَصْرَة وقدم بَغْدَاد، واتهم بالزَّنْدَقَة فمات ضرباً بالسياط، ودُفِنَ بالبَصْرَة، وكانت عادته إذا أراد أن ينشد أو يتكلم أن يتفل عن يمينه وشماله ويصفق بإحدى يديه على الأخرى. الزِّرِكْلِي: الأعلام, ج٢، ص٥٢.

(٢) ابن عَبْدالقُدُّوس (ت نحو ١٦٠هـ/٧٧٧م): صالح بن عبدالقدّوس بن عبدالله بن عبدالقدّوس الأزدي الجذامي، أبوالفضل: شاعر حكيم كان متكلماً يعظ النَّاس في البَصْرَة. وشعره كله أمثالٍ وحكم وآداب، اتهم عند المَهْدِي بالزَّنْدَقَة، فقتله ببَغْدَاد. الزِّرِكْلِي: الأعلام, ج٣، ص١٩٢, ١٩٣.

واشتد الخليفة الهادي في طلبهم فقتل منهم جماعة, فكان مِمَّن قُتِلَ يزدان بن كاتب يقطين وابنه علي, ويقال إن الهادي قد أمر أن يهيأ له ألف جذع لصلب الزَّنَادِقَة إلا أنه توفي، وكذلك فعل هارون الرَّشِيد بعد توليه الخلافة سنة (١٧٠هـ / ٧٨٦م), فقد طود الزَّنَادِقَة ولم يتهاون في أمرهم, وكان يمتحن كل من تحوم حوله الشبهات بالزَّنْدَقَة ويعاقب من تثبت عليه أشد عقوبة.

ولَمَّا تولى المَأْمُون سنة (١٩٨هـ/٨١٤م) اهتم بالقضاء على الزَّنَادِقَة, فقد بلغه خبر عشرة من الزَّنَادِقَة من أهل البَصْرَة يذهبون إلى قوم ماني ويقولون بالنُّور والظُّلْمَة فأمر بحملهم إليه, فكان يدعوهم رجلاً رجلاً ويسألهم عن دينهم فيخبرونه الإسلام, فيمتحنهم بأن لهم صورة ماني ويأمرهم أن يتفلوا عليها, ويأمرهم بذبح طائر الدراج فإن أبوا ذلك قتلهم.

وقد أدى انتشار الزَّنْدَقَة إلى نشاط الحركة الأَدَبِيَّة والعِلْمِيَّة, فقد كان للزَّنَادِقَة كتب وأشعار كثيرة, فإذا ألقى الشُّعَرَاء قصائد زَنْدَقَة, رد عليهم بردود تدحض حججهم، حيث برزت فئةً كبيرةً من مفكري وأُدَبَاء العصر العَبَّاسي الأول للتصدى لهم, فنشأ علم الكلام, وجاء في مقدمة من وقف أمامهم ابن هُذَيل العَلاف وله مناظرات عديدة مع الزَّنَادِقَة.

شكل (٣) الخليفة المأمون

حركة المُقَنَّع الخُرَاسَاني:

وهي من الحركات الهَدَّامَة التي ظهرت في العصر العَبَّاسي الأول في عهد المَهْدِي, وتزعمها رجلٌ من أهل خُرَاسَان من مَرْو الرُّوذ[1] يدعى: الخُرَاسَاني, وذلك بعد مقتل أبي مُسْلِم الخُرَاسَاني, وقد لُقِّبَ بالمُقَنَّع لأنه اتخذ قناعاً من الذهب، ليخفي به وجهه لقبحه، حيث كان أعوراً مشوه الخِلقة.

وقد قال الشَّهْرَسْتَاني (ت ٥٤٨هـ / ١١٥٣م): أن المُقَنَّع الخُرَاسَاني من فرقة الرزامية وهي فرقة راوندية قدست أبا مُسْلِم الخُرَاسَاني, وقالت بإمامته, وادعت حلول الإله فيه, حيث كان في بداية أمره على هذا المذهب ثم ادعى الإلوهية, وتابعه مبيضة ما وراء النَّهَر.

واعتنق المُقَنَّع فكرة تناسخ الأرواح فكان يقول: إنه هو الإله, وأنه كان قد تصور مَرَّة في صورة آدم 7, ثم تصور في وقت آخر بصورة نوح 7, وفي وقت آخر بصورة إبراهيم 7, ثم تردد في صورة الأنبياء إلى سيدنا مُحَمَّد 6 , ثم تصور بعده في صورة الإمام علي 2, وانتقل بعد ذلك في صور أولاده, ثم تصور بعد ذلك في صورة أبي مُسْلِم الخُرَاسَاني, ثم تحول إلى هاشم.

وقد زعم لأتباعه إنه إنما انتقل في الصُّور لأن النَّاس لا يطيقون رؤيته في صورته التي هو عليها, ومن رآه احترق بنوره, كما أظهر قمراً يطلع ويراه النَّاس على مسيرة شهرين ثم يأفل, وأباح المُقَنَّع لأتباعه المُحَرَّمَات, وحَرَّمَ عليهم القول بالتحريم, وأسقط عنهم الصَّلاة والصِّيَام وسائر العبادات.

واستطاع المُقَنَّع الخُرَاسَاني أن يصبغ صفة الغموض والقدسية على شخصيته, وتَمَكَّنَ من تحقيق ذلك بالخطوات التالية:

(١) اتخاذ القِنَاع, وذلك لسببين ظاهري وجوهري, فالظَّاهِر هو إخفاء عيوب وجهه, أَمَّا الجوهري فهو إضفاء الغموض والسِّرِيَّة على شخصه ليزيد تعلق النَّاس به فيكثر أتباعه.

(٢) استخدامه السِّحر والتَّنْجِيم, وذلك بإظهاره القمر, فاعتقد كثير من العوام بأن ذلك دليل على قدرته وعظمته فمالت قلوبهم إليه.

(٣) زعمه من رآه احترق بنوره, فلَمَّا أصر جماعةٌ من أتباعه على رؤيته سلط

---

(١) مَرْوُ الرُّوذ: المرو: الحجارة البيض تقتدح بها النَّار، ولا يكون أسود ولا أحمر ولا تقتدح بالحجر الأحمر ولا يسمّى مروا، والروذ بالفَارِسِيَّة النَّهَر، فكأنه مرو النَّهَر: وهي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيَّام، وهي على نهرٍ عظيمٍ، فلهذا سميت بذلك. الحَمَوِي: مُعْجَم البُلْدَان, ج٥، ص١١٢.

المُقَنَّع عليهم المرايا التي عكست أشعة الشَّمْس البَرَّاقَة فَخَرُّوا له ساجدين.

(٤) كما أن المُقَنَّع لم يظهر لرسول قائد الجيش العَبَّاسي, وإنما ناداه من وراء الحجاب مؤكداً بذلك أنه فوق البشر.

وقد عظم أمر المُقَنَّع الخُرَاسَاني وكثر أتباعه, واعتصم بقلعةٍ حصينةٍ بـ»كش», ومحاطةً بخندقٍ عظيم, وأخذ يغير على النَّوَاحِي المجاورة ويستولي على أموال المسلمين, وتغلب على بعض الحُصُون والقِلاع, وازداد خطره على الدَّولَة العَبَّاسِيَّة, فوجه إليه الخليفة المَهْدِي جبرائيل بن يحيى وأخاه يزيد, فدخلا معه في قتالٍ مريرٍ، إلا أنهما لم يستطيعا القضاء عليه, وقاوم أتباع المُقَنَّع الخُرَاسَاني جيش الخلافة بكل إصرارٍ وانتصروا عليه.

فثار الخليفة العَبَّاسِي المَهْدِي لذلك, وأعد جيشاً كبيراً لقهر المُقَنَّع الخُرَاسَاني, وجعل على رأسه سعيد بن عمرو الحَرَشِي (ت بعد ١١٢هـ / بعد ٧٣٠م)[١] قائداً عاماً مع عدد من القادة العسكريين, فتوجه الحَرَشِي إلى القلعة التي اعتصم بها المُقَنَّع[٢], واتخذ من الحديد والخشب مائتي سلم ليضعها على عرض الخندق, وشدد الحصار على المُقَنَّع مِمَّا اضطر كثير من أصحابه إلى الاستسلام, فبقي مع قلةٍ من أتباعه.

شكل (٤) المُقنع الخُرساني

(١) سعيد بن عمرو الحرشيّ: قائد، من الولاة الشجعان. من أهل الشَّام. وهو الّذي قتل شوذب الخارجي، وفتك بمن معه، سنة ١٠١هـ وولاه ابن هبيرة خُرَاسَان سنة ١٠٣هـ، ثم بلغ ابن هبيرة أنّه يكاتب الخليفة ولا يعترف بإمارته، فعزله وسجنه، ثم أخرجه خالد القسري وأكرمه، فعاد إلى الشَّام، فولاه هشام غزو الخزر سنة ١١٢هـ، فرحل إلى أَرْمِينِيَة، ثم أمره هشام بالعودة إليه، فعاد. قال ابن حزم: وولده بِأَرْمِينِيَة، وكان تقياً بطلاً وصفه ابن هبيرة بفارس قيس، نسبته إلى الحريش بن كعب بن ربيعة. الزِّرِكْلِي: الأعلام, ج٣، ص٩٩.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط, ص٤٣٧.

فلَمَّا وصل المسلمون إلى الخندق واقتربوا من السُّور, أيقن المُقَنَّع بالهلاك وذلك في سنة ١٦٣هـ/٧٨٠م, فأضرم ناراً عظيمة في جميع ما بالقلعة من دابةٍ وثوبٍ ومتاعٍ وقال: من أُحِبُ منكم ارتفع معي إلى السَّمَاء فليُلْقِ نفسه في هذه النَّار، فألقى بنفسه فتبعه أهله, وقيل إنه شرب سماً وسقى نساؤه فهلكوا جميعاً، ودخل عسكر المَهْدِي القلعة فوجدوها خالية.

وتشير بعض المصادر إلى أن موته لم يقضِ تماماً على مبادئه، وإنما اعتنقها أهالي ما وراء النَّهَر, وخَاصَّة العوام والضعفاء من النَّاس.

شكل (٥) حركة المقنع الخرساني

حركة بَابَك الخُرَّمِي:

اعتنق أنصارها فكرة القضاء على الدِّين الإسلامي والتخلص من الخلافة العَبَّاسِيَّة, وإحياء دولة الفُرْس المجوسية, وقد ترأس هذه الحركة بَابَك الخُرَّمِي, وذلك بعد وفاة مؤسسها جاويدان, حيث أن زوجة جاويدان قد جمعت أتباعه, وادعت أن زوجها قال قبل وفاته: «إني أريد أن أموت في هذه اللَّيلَة, وأن روحي تخرج من بدني وتدخل في بدن بَابَك وتشترك مع روحه, وأنه سيبلغ بنفسه, وبكم يبلغ أمراً لم يبلغه أحد, وأنه يملك الأرض, ويقتل الجبابرة, ويرد المزدكية, ويعز بعاليكم، ويرفع به وضيعكم».

وكانت أهم مبادئ الخُرَّمِيَّة من الأباطيل الضالة والمضلة، الإيمان بتناسخ الأرواح, والزَّعْم أن الرُّسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة, وأن الوحي لا ينقطع أبداً, وكذلك الإجماع على القول بالرَّجْعَة, وإباحة النِّسَاء, وسائر الشهوات.

وقد كانت بداية ظهور بَابَك الخُرَّمِي في سنة ٢٠١هـ / ٨١٧م في بلاد أذربيجان[١] والتي اتخذها مقراً له, وأخذ ينشر تعاليمه فيها, واستخدم كل وسائل الإقناع، فكثر أتباعه, وصبغوا ثيابهم باللَّون الأحمر، واتخذوه شعاراً لهم, وازداد خطره، وشن الغارات على القُرَى المجاورة, فَنَهَبَ وسَلَبَ, وأَلْحَقَ بالبلاد الخراب.

فلَمَّا رأى الخليفة المَأْمُون تزايد خطره اشتد في ملاحقته، وأرسل إليه في سنة ٢٠١هـ / ٨١٩م جيشاً بقيادة يحيى بن معاذ (ت٢٠٦هـ)[٢] إلا إنه لم يظفر به, فاتخذ المَأْمُون خطوة أخرى في سنة ٢٠٥هـ / ٨٢٠م وذلك بتوليته والياً جديداً حازماً في بلاد إِرْمِينِيَة وأذربيجان وهو عيسى بن مُحَمَّد بن أبي خالد وعهد إليه ببَابَك الخُرَّمِي, إلا أن بَابَك انتصر عليه.

وتوسعت حركة بَابَك الخُرَّمِي, وأصبحت تشكل خطراً كبيراً على الدَّولَة العَبَّاسِيَّة, فلم يتوان الخليفة المَأْمُون في قتاله, فأخذ يرسل إليه الجيش تلو الآخر محاولاً القضاء عليه, إلا أن النَّصْر كان حليف بَابَك, فقد تَمَكَّنَ من هزيمة جيش الخلافة في سنة ٢٠٩هـ / ٨٢٤م بقيادة علي بن صدقة, وفي سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩م بقيادة

---

(١) أذربيجان: جمهورية إسلامية، تقع غربي بحر قَزْوِين، يحدها من الغرب جمهورية أرمينيا، ومن الشمال الغربي جمهورية جورجيا، ومن الشمال داغستان، ومن الجنوب إيران، وكلمة أذربيجان فارسية الأصل، وتعني أرض النَّار؛ لكثرة معابد النَّار التي كانت قائمة فيها قبل الإسلام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٣.

(٢) يحيى بْن مُعَاذ: متولّي الجزيرة، كان من كبار قواد المَأْمُون، تُوُفّي سنة ستٍّ ومائتين. الذَّهَبي: تاريخ الإسلام, ج٥، ص٢٢٧.

مُحَمَّد بن حُمَيْد الطوسي[1]، الذي فاجأه بَابَك من مضايق الجبال ومن كل وجه فانهزم جيشه وقتل ابن حُمَيْد.

وظل هذا الثَّائِر معتصماً بجبال أذربيجان, ولم يتمكن الخليفة المَأْمُون من القضاء على حركته, فلَمَّا مَرِضَ مَرَضَ موته أوصى أخاه وولي عهده المُعْتَصِم بملاحقة الخُرَّمِيَّة, وبذل كل ما في وسعه للقضاء عليهم.

شكل (٦) حركة بابك الخرمي

(١) مُحَمَّد بن حُمَيَد الطّوسيّ الأمير: كان مقدَّم الجيش الذين حاربوا بَابَك الخُرَّمِي، فقُتِل إلى رحمة الله وعفّوه، فوُلّي بعده على الجيوش عليّ بن هشام، إلى أن قُتِل أيضاً في قتال الخُرَّميّة سنة سبْع عشرة، وكان مَقْتَل مُحَمَّد في سنة أربع عشرة. الذَّهَبي: تاريخ الإسلام, ج٥، ص٤٣٥.

فلَمَّا تولى المُعْتَصِم الخلافة في سنة ٢١٨هـ / ٨٣٣م كانت جماعةٌ كبيرةٌ من أهل الجبال من هَمَدَان وأَصْبَهَان ومَاسَبَذَان [١] ومِهْرِجان [٢] قد اعتنقت الخُرَّمِيَّة وعسكروا في عمل هَمَدَان, فاستعد الخليفة المُعْتَصِم بكل قُوَّاته لمحاربة الخُرَّمِيَّة والقضاء عليها, فأرسل في السَّنَة التي تولى فيها جيشاً بقيادة إسحاق بن إبراهيم بن مُصْعَب، الذي تمكن من قتل ستين ألفاً في همدان وهرب الباقون إلى الرُّوم. ثم وَجَّه الخليفة المُعْتَصِم سنة ٢٢٠هـ / ٨٣٥م أكبر قواده الأفشين (ت٢٢٦هـ / ٨٤١م) لحرب الخُرَّمِيَّة, وعقد له على الجبال وأمده بالمال والنَّفَقَات اللازمة, ووجه المُعْتَصِم أباسعيد مُحَمَّد بن يوسف إلى أَرْدَبِيل [٣], وأمره أن يبني الحصون التي خربها بَابَك فيما بين زَنْجَان [٤]وأَرْدَبِيل, ويجعل فيها الرِّجَال لوصول المؤن إلى أَرْدَبِيل ففعل أبوسعيد ذلك.

فتقدم القائد الأفشين حتى نزل روذ الرُّوذ وخندق في ثلاثة جبال مطلة على البَذ, وعبأ أصحابه وأمر كل منهم بلزوم موضعه, وبنى سوراً ووضع الكمائن, وزحف إلى البَذ في يوم الخميس لتسعٍ خَلَون من رمضان سنة ٢٢٢هـ, وأحرق قصور

(١) مَاسَبَذَان: منطقة تقع شمالي الأهواز إلى الغرب على حدود العراق، وأهم مُدُنها (السيروان) و(الصميرة).

(٢) مِهْرجان: معناه بالفَارِسِيَّة فرح النفس، قد يسقط من الكورة المذكورة آنفا قذق فيقال مهرجان فقط، قال أبوسعد: مهرجان قرية بأسفرايين لقبها بذلك كسرى قباذ بن فيروز والد كسرى أنوشروان لحسنها وخضرتها وصحة هوائها، ينسب إليها جماعة من العُلَمَاء، منهم: أبوبكر مُحَمَّد بن عبدالله بن مهدي المهرجاني النَيسَابُوري، سمع مُحَمَّد بن يحيى الذهلي ومُحَمَّد بن رجاء وعمر بن شبّة وأبا سعيد الأشجّ وغيرهم، روى عنه أبوعلي الحافظ وغيره، ومهرجان: قرية بين أَصْبَهَان وطبس كبيرة بها جامع وقد خربت. الحَمَوِي: مُعْجَم البُلْدَان, ج٥، ص٢٣٣

(٣) أَرْدَبِيل: مدينة بآذربيجان حصينة طيبة التربة، عذبة الماء، لطيفة الهواء، في ظاهرها وباطنها أنهارٌ كثيرة، ومع ذلك فليس بها شيء من الأشجار التي لها فاكهة، والمدينة في فضاءٍ فسيحٍ وأحاط بجميع ذلك الفضاء الجبال بينها وبين المدينة من كل صوب مسيرة يوم. القَزْوِيني: آثار البلاد, ص٢٩١.

(٤) زَنْجَان: مدينة في خُرَاسَان, بينها وبين النَّهَر خمسة عشر فرسخاً. قالوا: أذربيجان وقَزْوِين وزَنْجَان كور تلي الجبل من بلاد العراق وتلي كور إِرْمِينِيَة من جهة المغرب، وهي تلي الزعفرانية في الجبل، بينها وبين همذان ثلاثة فراسخ، سميت بذلك لأن بها زعفراناً كثيراً، وزَنْجَان كورة واسعة وهي أكبر من أبهر، وأهل أبهر أحذق وأنبل طباعاً، غير أن زنجان يغلب على أهلها الغفلة. الحِمْيَرِي: الرَّوض المِعْطَار, ص٢٩٤.

وعمل الأفشين على إضعاف جاسوسية بَابَك بأن أخذ يكرم كل من يقع في يده من جواسيس بَابَك, ويضاعف له في العطاء ويضمه إلى جواسيسه, وحدث بين الأفشين وبَابَك الخُرَّمِي وقائع قتل فيها طوخان أكبر قواد بَابَك, وعزم الأفشين على الدنو من البَذ [1], فرحل من كَلانُ رُوذ [2]، وأخذ يتقدم ببطء من الكمائن التي نصبها بَابَك, وكان المُعْتَصِم قد كتب إلى الأفشين يأمره أن يجعل النَّاس نوائب يقفون على ظهور الخيل, كما يدور العسكر في اللَّيل ليكونوا على استعدادٍ تامٍ مخافة البيان.

فتقدم القائد الأفشين حتى نزل روذ الرُّوذ وخندق في ثلاثة جبال مطلة على البَذ, وعبأ أصحابه وأمر كل منهم بلزوم موضعه, وبنى سوراً ووضع الكمائن, وزحف إلى البَذ في يوم الخميس لتسعٍ خَلَون من رمضان سنة ٢٢٢هـ, وأحرق قصور بَابَك وأخرج من كان بالبَذ من أسارى المسلمين, أَمَّا من تمكن من الهرب، فكتب القائد الأفشين إلى ملوك إرْمِينِيَة يخبرهم بهروبه وأصحابه, ويأمرهم بمراقبة

شكل (٧) الخليفة المُعتصم

(١) البَذ: موضع جبلي بين أذربيجان وأران ويعرف أيضا باسم (بذان).

(٢) كَلانُ رُوذ: معناه النَّهَر الكبير: وهو بأذربيجان قريب من البذّ. الحَمَوِي: مُعْجَم البُلْدَان, ج٤، ص٤٧٥.

نواحيهم, وأن يأخذوا من مر بهم, حتى وقع بَابَك في يد البطريك سَهْل بن سُنْبَاط فسلمه, فأمر القائد الأفشين له بألف ألف – مليون - درهم, ومنطقة معرقة بالجواهر, وتاج الطرقة.

وقد سار الأفشين إلى سامراء في صَفَر ٢٢٣هـ ومعه بَابَك، فلَمَّا حضر بين يدي المُعْتَصِم أمر بقتله، وبعث برأسه إلى خُرَاسَان وطلب بدنه بسامَرَاء [١].

وهكذا أظهر المُعْتَصِم هِمَّةً عاليةً في التصدي لحركة بَابَك الخُرَّمِي, والتي تعتبر من أخطر الحركات التي واجهتها الدَّولَة العَبَّاسِيَّة قبل أن يستفحل خطرها في بلاد المسلمين.

وهكذا نرى أن الخُلَفَاءَ العَبَّاسيون بذلوا قصارى جهدهم لتتبع هذه الحركات والقضاء عليها, وقد نجحوا في ذلك إلى حدٍ بعيدٍ, ولم يفسحوا المجال لمثل هذه الحركات الهَدَّامَة أن تنمو وتنتشر في العالَم الإسلامي، والتي كانت تحمل مظاهر توافرت فيها وهي:

(١) حقدها الدَّفين على العرب.

(٢) حربها على الإسلام ومحاولة تشويه مبادئه.

شكل (٨) الخليفة المعتصم يقاتل بَابَك الخُرَّمِي

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط, ص٤٧٧.

تدريبات الفصل الأول

حدد صواب أو خطأ العبارة التالية:

(١) اعتنق المقنع الخرساني فكرة استنساخ الأرواح:

- ○ صواب
- ○ خطأ

(٢) اعتنقت حركة بابك الخرمي فكرة إحياء دولة الفُرس في المجوسية:

- ○ صواب
- ○ خطأ

اختر الإجابة الصحيحة مما يلي:

(٣) تصدى الخليفة العباسي ..... لحركة بابك الخرمي:

- ○ المهدي
- ○ المُعتصم
- ○ المأمون

(٤)ظهرت الزندقة بصورة واضحة في عهد الخليفة:

- ○ المهدي
- ○ المُعتصم
- ○ المأمون

الفصل الثاني

المشرق الإسلامي قبيل قيام الدولة العباسية

الفصل الثاني
المشرق الإسلامي قبيل قيام الدولة العباسية

الأهداف:

عزيزي الطالب .. بعد الإنتهاء من دراسة هذا الفصل ينبغي عليك أن تكون قادرًا على أن:

(١) توضح صورة المشرق الإسلامي قبل قيام الدولة العباسية.
(٢) تعدد خطوات فتح قتيبة بن مسلم لبلاد ما وراء النهر.
(٣) تلخص مراحل الفتح الذي قام بها محمد بن القاسم.
(٤) تشرح عوامل ضعف الخلافة العباسية.

مقدمة:

شملت الجبهة الشرقية للدَّولَة الإسلامية المناطق الواقعة شرق العراق، وقد اتسمت الأُمَم التي كانت تقطن تلك المناطق بالتعدد جِنْسَاً وحَضَارَة، وإن اتفقت جميعها في الوثنية، وكان المسلمون حتى خلافة عُثْمَان 2 قد أتموا فتح البلاد التي تقع بين العراق ونهر «جَيحُون» [١] وهو نهر آمودريا الذي يقع الآن على الحدود بين تركمانستان وأزبكستان - أي كل أقاليم دولة إيران السَّاسَانِيَّة، وتضم منطقة: «الجبال» و«الرَّي» [٢] و«جُرْجَان» [٣]

(١) جَيحُون: سمي بذلك لاجتياحه الأرضين، وأصل جَيحُون بالفَارِسِيَّة هرون، وهو اسم وادي خُرَاسَان على وسط مدينة يُقَال لها: جيهان فنسبه النَّاس إليها وقالوا جَيحُون على عادتهم في قلب الألفاظ. الحَمَوِي: مُعجَم البُلْدَان, ج٢، ص١٩٦.

(٢) الرَّي: كورة معروفة تنسب إلى الجبل وليست منه بل هي أقرب إلى خُرَاسَان، وهي بقرب دنباوند وطَبَرِسْتَان وقومس وجُرْجَان. الحِمْيَرِي: الرَّوض المِعْطَار في خبر الأقطار, ص٢٧٨.

(٣) جُرْجَان: على نهر الديلم، افتتحها سعيد بن عُثْمَان في ولاية مُعَاوِيَة، ثم ارتدّ أهلها عن الإسلام حتى افتتحها يزيد بن المُهَلَّب في ولاية سُلَيْمَان بن عبدالملك بن مَرْوَان. وخراج البلد عشرة آلاف ألف درهم، وفيه يعمل جيد الخشب من الخلنج وغيره وأصناف ثياب الحرير، وبه الإبل البخاتي العظام، وبأرض جُرْجَان النخل الكثير. اليعقوبي: البُلْدَان, ص٩٢.

و«طَبَرِسْتَان» [١] و«قُوْهِسْتَان» [٢] و«خُرَاسَان» [٣] و«فارس» و«كَرْمَان» [٤] و«مُكْرَان» [٥] و«سجستان» [٦]

(١) طَبَرِسْتَان: اسمٌ يُطلق على الإقليم الذى يقع جنوبي بحر قَزْوِين، ويشمل المنطقة الجبلية التي تمثلها جبال البورز، وهو الإقليم الذى يُعرف اليوم باسم ولاية مازندران، وهو أحد الأقسام الإدارية لإيران المعاصرة، وعاصمته بابول، وهي ميناء صغير يُطل على بحر قَزْوِين إلى الغرب من ميناء ساري.

(٢) قُوْهِسْتَان: تعريب كوهستان، يعنى موضع الجبال. وأَمَّا المشهورة بهذا الاسم فأحد أطرافها متصل بنواحي هُرَاة، ويمتد في الجبال طولاً حتى يتصل بقرب نهاوند وهمذان وبروجرد، وهذه جبال تسمّى كلّها بهذا الاسم بين هُرَاة ونَيسَابُور، وقصبتها قاين. البَغْدَادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع, ج٣، ص١١٣٥.

(٣) خُرَاسَان: تتقاسمها اليوم إيران الشرقية الشمالية وأفغانستان وتركمانيا. من أهم المُدُن بها: مَرْو ونَيسَابُور وبلخ وهُرَاة وخُوارِزْم وجُرْجَان وطَبَرِسْتَان وأَصْبَهَان وسرخس وكابول وقنجار. فتحها الأحنف بن قيس في عهد عُمَر بن الخَطَّاب 2 سنة ١٨هـ.

(٤) كَرْمَان: ولاية كبيرة بإيران. يحدها من الشرق مُكْرَان ومن الغرب فارس، ومن الشمال خُرَاسَان، ومن الجنوب بحر فارس، وتشتهر بالزِّرَاعَة والماشية وصناعة السِّجَّاد والأدوات النُّحَاسِيَّة.

(٥) مُكْرَان: ولاية واسعة تشتمل على مُدُن وقُرَى، غربيها كَرْمَان، وسجستان شماليها، والبحر جنوبيها. البَغْدَادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع, ج٣، ص١٣٠١, ١٣٠٢.

(٦) سجستان: مدينة تَارِيخِيَّة يُعرف بها الإقليم الذي يشمل القسم الجنوبي والشرقي من أفغانستان. ويحدها من الشمال إقليم خُرَاسَان، ويفصلها عن البحر إقليم مُكْرَان، وعاصمتها هي زرنج. وقد فتح المسلمون زرنج سنة ٣٠هـ.

فلَمَّا استُشْهِدَ عُثْمَان بن عفان 2 ووقعت الفتنة تعثرت الفتوح، خرج أهل هذه البلاد عن الطَّاعَة، حتى إذا التأمت جماعة المسلمين أخذت الدَّولَة الأُمَوِيَّة تبذل جهوداً بالغة لإعادة البلاد المفتوحة إلى الطَّاعَة، وكانت مُهِمَّة مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان 2 العاجلة في الشرق فور توليه الخلافة هي تدعيم القُوَّة الإسلامية، وإعادة توطيد أقدام المسلمين هناك.

وقد نجحت الدَّولَة الإسلامية في عهد مُعَاوِيَة بن أبي سفيان 2 في فتح معظم مناطق إقليم خُرَاسَان على يد أميرها عبيدالله بن زياد، وكان مُعَاوِيَة قد ولاه البَصْرَة والكُوفَة سنة ٥٣-٥٩هـ / ٦٧٢-٦٧٨م، وعَمِلَ هذا الأمير على مد حركة الفتح إلى بلاد ما وراء النَّهَر (١)، وغزا كل من بِيكَنْد (٢) وبُخَارَى (٣) من بلاد الصُّغْد (٤)، واضطرهما إلى دفع الجزية، ثم وقف راجعاً إلى البَصْرَة.

ويبدو أنه أقدم على عبور نهر جَيحُون إلى ما ورائه من البلاد بعد أن أسلمت خُرَاسَان قيادتها للمسلمين وعَزَّ فيها الإسلام، وقد كانت هذه الفتوحات في المنطقة الشرقية تسير في خطين: أحدهما شمالي إلى بلاد ما وراء النَّهَر، والآخر جنوبي إلى بلاد السِّنْد (٥).

---

(١) بلاد ما وَراء النَّهَر: يراد به ما وراء نهر جَيحُون بخُرَاسَان، وهي من أكثر الأقاليم خيراً. الحَمَوِي: معجم البُلْدَان, ج٥، ص٤٥, ٤٦.

(٢) بِيكَنْد: بلدة بين بُخَارَى وجَيحُون، لها ذكر في الفتوح، وكانت كبيرة حسنة كثيرة العُلَمَاء، خربت منذ زمن. قال صاحب كتاب الأقاليم: كل بلدة بما وراء النَّهَر لها مزارع وقُرَى إلا بِيكَنْد فإنها وحدها، غير أن بها من الرباطات ما لا أعلم ببلد من البُلْدَان مِمَّا وراء النَّهَر أكثر منها، بلغني أن عددها نحو ألف رباط، ولها سورٌ حصينٌ ومسجدٌ جامعٌ قد تنوّق في بنائه وزخرف محرابه، فليس بما وراء النَّهَر محراب مثله ولا أحسن زخرفة منه. الحَمَوِي: معجم البُلْدَان, ج١، ص٥٣٣.

(٣) بُخَارَى: مدينة إسلامية تقع في غرب جمهورية أوزبكستان في آسيا الوسطى، واسمها مشتقٌ من كلمة بخار المُغُولِيَّة وتعني: العِلم الكثير، وبُخَارَى إقليمٌ يمتد من نهر جَيحُون حتى صحراء قزل قم.

(٤) الصُّغْد: وهما صغدان: صغد بُخَارَى، وصغد سَمَرْقَنْد. وهي قُرَى متّصلة خلال الأشجار والبساتين من سَمَرْقَنْد إلى قريب من بُخَارَى. البَغْدَادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع, ج٢، ص٨٤٢.

(٥) السِّنْد: ولاية أقامها المسلمون في القرن ١هـ / ٧م، وشملت الحوض الأدنى لنهر السِّنْد. ولم تكن هذه البلاد مجهولة للعرب إذ كانت تجارتها تمر بالأرض العَرَبِيَّة. بدأت علاقتها بالمسلمين بحملة بحرية بقيادة المُغِيرَة بن أبي العاص الثَّقَفِي عام ١٥هـ، واستطلع المسلمون أمر الهِنْد في خلافة عُثْمَان 2، وقاد الحارث بن مُرَّة حملة إليها في خلافة علي 2.

الخط الشمالي:

بلاد ما وراء النَّهَر:

أطلق المسلمون اسم ما وراء النَّهَر على البلاد التي يفصلها نهر جَيحُون عن خُرَاسَان, وهي التي تقع وراءه من جهة الشرق والشمال. وتعرف الآن باسم آسيا الوسطى الإسلامية وتضم خمس جمهوريات إسلامية كانت خاضعة للاتحاد السوفيتي, ثم مَنَّ الله عليهم فاستقلوا بعد انهياره. وهي: أوزبكستان وطاجيسكتان وقازاخستان وتركمانستان وقرغيزيا.

وتقع بلاد ما وراء النَّهَر بين نهر جَيحُون - ويعرف حالياً بأمودريا - جنوباً، ونهر سيحون [1] - ويعرف حالياً بسرداريا - يقع الآن في كازاخستان شمالًا، ويُطلق عليها- أحياناً - بلاد الهياطلة وكان أهلها وثنيين من أصولٍ تُرْكِيَّة، حَلُّوا بها منذ القرن السادس الميلادي، وتتميز بوفرة المياه، لوجود نهري جَيحُون وسيحون وروافدهما الكثيرة، مِمَّا ساعد على خصوبة المنطقة وكثرة الزِّرَاعَة والعمارة فيها، واجتذاب السُّكَّان إليها.

شكل (٩) بلاد ما وراء النهر

(١) سيحون: هو أحد الأنهار الشهيرة بالقرب من سَمَرْقَنْد على حدود تركيا، ويقع في بلاد ما وراء النَّهَر، وكان اسمه قديماً سرداريا، وأطلق عليه الأتراك اسم سيحون، وعرفه العرب بهذا الاسم. وقد تردد اسم هذا النَّهَر كثيراً أثناء الحديث عن فتوحات المسلمين في بلاد ما وراء النَّهَر. ويبلغ طوله ٣٠٠ ميل.

يمكن تقسيمها عند الفتح الإسلامي إلى عِدَّة أقاليم أو ممالك مستقلة وهي:

١- إقليم طخارستان [١]: ويقع على ضفتي نهر جَيحُون وعاصمة بلخ [٢].

٢- إقليم الصُّغْد: ومن أشهر مُدُنه: بِيكَنْد وبُخَارَى وسَمَرْقَنْد [٣].

٣- إقليم خُوارِزْم [٤]: ويشمل على دلتا نهر جَيحُون وعاصمته: الجُرْجَانِيَّة [٥].

٤- إقليم الخُتَّل [٦]: في أعالي نهر جَيحُون, وعاصمته مدينة هلبك [٧]. ومن مُدُنه: أشجرد والصغانيان [٨]، وكانت هذه الممالك الأربعة تسمى بالممالك الجَيحُونِيَّة.

٥- إقليم فَرْغَانَة [٩]: على نهر سيحون. وتعرف اليوم باسم خوقند.

٦- إقليم الشَّاش [١٠]: على نهر سيحون أيضاً، وتعرف اليوم بطشقند عاصمة كازاخستان الآن.

---

(١) طخارستان: اسم أطلق على الإقليم الذي يمثل اليوم المنطقة الشمالية من أفغانستان.

(٢) بلخ: مدينة عظيمة من أمهات بلاد خُرَاسَان. بناها منوجهر بن ايرج بن افريدون. أهلها مخصوصون بالطرمذة من بين سائر بلاد خُرَاسَان. القَزْوِيني: آثار البلاد وأخبار العباد, ص٣٣١.

(٣) سَمَرْقَنْد: اسمٌ يطلق على إقليم ومدينة في جمهورية أوزبكستان الإسلامية، الإقليم يقع شمالها، أَمَّا المدينة فتقع على ضفة نهر زرافستان، وتبعد ١٣٠ ميلاً عن بُخَارَى، فتحها صُلْحاً سعيد بن عُثْمَان بن عَفَّان عام ٥٧هـ / ٦٧٧م، ثم أعاد فتحها بعد قتالٍ شديدٍ قتيبة بن مُسْلِم في خلافة الوليد بن عبدالملك عام ٩٣هـ / ٧١١م.

(٤) خُوارِزْم: كورة من خُرَاسَان، وتحيط بها المفاوز والصحاري من كل جانب، وهي مدينةٌ حصينةٌ كثيرةُ الطَّعَام والفواكه. الحِمْيَرِي: الرَّوض المعطار، ص٢٢٥.

(٥) الجُرْجَانِيَّة: مدينتان على ضفة النَّهَر، واسم الشرقية درغاش والغربية الجُرْجَانية، وهي كبيرةٌ عامرةٌ ذات أسواق وربض وسور محيط بالربض، والمدينة طولها نحو تسعة أميال في مثلها. الحِمْيَرِي: الرَّوض المعطار، ص١٦٢.

(٦) الخُتَّل: كورة واسعة كثيرة المُدُن، خلف جَيحُون أجلّ من صغانيان، وأوسع خطة، وأكثر مُدُناً، وأكثر خيراً، وهي على تخوم السِّنْد، يقال لقصبتها هلبك. ولها مُدُن كثيرة. البَغْدَادي: مراصد الاطلاع، ج١، ص٤٥٢.

(٧) هلبك: من بلاد الختل، مدينة حسنة البقعة, كثيرة البساتين والمتنزهات, وبناؤها بالطين والآجر والجيار، وبها أسواق كثيرة, وهم قوم مياسير, والسُّلْطَان ينزل بها. الحِمْيَرِي: الرَّوض المعطار، ص٥٩١.

(٨) الصغانيان: من أكبر المُدُن التي عن يسار المشرق من بلخ. ولها ربض وعليه سورٌ تراب، وبها أسواق وقُرَى وعمارات وصنائع. الحِمْيَرِي: الرَّوض المعطار، ص٣٦١, ٣٦٢.

(٩) فَرْغَانَة: ناحية مشتملة على بلاد كثيرة بعد ما وراء النَّهَر، متاخمة لبلاد التُّرْك، أهلها من أتم النَّاس أمانةً وديانةً على مذهب أبي حنيفة, كانت ذات خيرات وغلات وثمرات. القَزْوِيني: آثار البلاد، ص٢٣٥, ٢٣٦.

(١٠) الشَّاش: مدينةٌ جليلةٌ من عمل سَمَرْقَنْد وقصبتها بنكث، والشَّاش في أرضٍ مستويةٍ لا جبل فيها ولا أرض مرتفعة، وبساتينها ومتنزهاتها كثيرة، وهي من الثغور التي في ناحية التُّرْك. الحِمْيَرِي: الرَّوض المعطار، ص٣٣٥.

ومن مُدُن هذين الإقليمين الأخيرين: خُجَنْدَة [١] وإيلاق [٢] واسبيجاب [٣].
ومن الجدير بالذكر أن التُّرْك الذين واجههم المسلمون في هذه البلاد - بلاد ما وراء النَّهَر الواقعة بين بلاد إيران وبلاد المغُول - كانوا أجناساً، وكان أول جنس قابلوه هو جنس «الهياطلة» «Heptalirtes»، وكانوا قسمين كبيرين:
١- قبائل الشمال: وهي التي تسمى في الغالب باسم الهياطلة، ويلقب ملكهم بالزونبيل، وهذا اللَّقَب يقرأ أحيانا الرتبيل خطأ.
٢- قبائل الجنوب: وهي التي تسمى بالزابليين، وقد استقروا في إقليم زَابُلِسْتَان [٤] وأعطوه اسمهم.
ولم يكن الهياطلة هم الجنس التُّرْكي الوحيد الذي دخل المسلمون في صراع معه في هذه المرحلة من مراحل بنائهم للدَّولَة الإسلامية، بل كان هناك التُّرْك البختيون، ويسمون في غير العَرَبِيَّة باسم البكتريين نسبةً إلى إقليم باكتريا الذي سكنوه.
وعندما دخل المسلمون في صراعٍ مع التُّرْك قاتلوا البختيين في الوقت نفسه الذي قاتلوا فيه الهياطلة، وكلا الفريقين ينتمي إلى الأتراك الغزية.

---

(١) خُجَنْدَة: بينها وبين سَمَرْقَنْد عشرة أَيَّام مشرقاً، وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصّقع أنزه منها ولا أحسن فواكه، وفي وسطها نهرٌ جارٍ، والجبل متصل بها. الحَمَوِي: معجم البُلْدَان، ج٢، ص٣٤٧.

(٢) إيلاق: من بلاد خُرَاسَان، وبجبل إيلاق ذهبٌ وفِضَّة، وليس فيما وراء النَّهَر دار ضرب إلا بسَمَرْقَنْد وبُخَارَى وإيلاق، ولإيلاق بضع عشرة مدينة، مقدار عرضها مسيرة يومين في ثلاثة أَيَّام، وآخر حدودها ينتهي إلى وادي الشَّاش الذي يقع في بحيرة خوارزم وعَامَّة دور مُدُنها يجري فيها الماء. الحِمْيَرِي: الرَّوض المعطار, ٧١.

(٣) اسبيجاب: مدينة متصلة ببلاد الشَّاش لها قهندز وربض ودار الإمارة والجامع في المدينة الداخلة، وفي ربضها مياه وبساتين، وهي مدينة في مستو من الأرض، وهي ذات خصب وسعة، وليس بخُرَاسَان كلها وما وراء النَّهَر منها بلد لا خراج عليه إلا اسبيجاب. الحِمْيَرِي: الرَّوض المعطار, ص٧١.

(٤) زَابُلِسْتَان: كورة واسعة قائمة برأسها جنوبي بلخ وطخارستان وهي زابل، والعجم يزيدون السين وما بعدها في أسماء البُلْدَان شبيها بالنسبة، وهي منسوبة إلى زابل جدّ رستم بن دستان، وهي البلاد التي قصبتها غَزْنَة البلد المعروف العظيم. الحَمَوِي: معجم البُلْدَان، ج٣، ص١٢٥.

شكل (١٠) مواجهة المسلمون مع الهياطلة

وقد طرق المسلمون هذه البلاد عِدَّة مَرَّات منذ خلافة أمير المؤمنين عُثْمَان بن عَفَّان 2 (٢٤-٣٥هـ), وغزاها - في خلافة بني أُمَيَّة - عددٌ من القادة المسلمين إلى سنة ٨٦هـ / ٧٠٤م كان منهم: عبيدالله بن زياد [١]، وسعيد بن عُثْمَان بن عَفَّان [٢]

(١) عبيدالله بن زياد بن أبيه: وُلِدَ بالبَصْرَة، كان مع ولده لَمَّا مات بالعراق فقصد الشَّام فولاه عمه مُعَاوِيَة 2 خُرَاسَان سنة ٥٣هـ فتوجه إليها، ثم قطع النَّهَر ففتح «راميثن» ونصف بِيكَنْد، وأقام بخُرَاسَان سنتين، ونقله مُعَاوِيَة إلى البَصْرَة أميراً عليها سنة ٥٥هـ فقاتل الخوارج، وأقرّه يزيد على إمارته سنة ٦٠هـ، ولَمَّا مات سنة ٦٥هـ بايع أهل البَصْرَة لعبيدالله ثم لم يلبثوا أن وثبوا عليه فهرب إلى الشَّام، ثم عاد يريد العراق، فلحق به إبراهيم بن الأشتر في جيش يطلب ثأر الحسين، فاقتتلا فقتله ابن الأشتر. الزِّرِكْلِي: الأعلام، ج٤، ص١٩٢, ١٩٣.

(٢) سعيد بن عُثْمَان بن عَفَّان الأُمَوِي القُرَشِي: نشأ في المدينة، وبعد مقتل أبيه وفد على مُعَاوِيَة 2، فولاه خُرَاسَان سنة ٥٦هـ ففتح سَمَرْقَنْد، وأصيبت عينه بها، وعُزل عن خُرَاسَان سنة ٥٧هـ، ولما مات مُعَاوِيَة 2، انصرف إلى المدينة، فقتله أعلاج كان قدم بهم من سَمَرْقَنْد. الزِّرِكْلِي: الأعلام، ج٣، ص٩٨.

والمُهَلَّب بن أبي صُفْرَة [١], وكلٌ من ولديه: يزيد [٢] والمُفَضَّل [٣]، ولم تُسفر حملات هؤلاء القادة العظام عن فتح.

شكل (١١) خريطةٌ تُظهرُ الحد الذي توقَّف عندهُ الزحفُ الإسلامي

(١) المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة: هو المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة ظالم بن سراق الأزدي، والي خُرَاسَان أيَّام عبدالملك بن مَرْوَان. وُلد في دبا ونشأ في البَصْرَة، تولى إمارة البَصْرَة لمُصْعَب بن الزُّبَير، وقرَّبه الحَجَّاج إليه لقتاله الخوارج، وكان يأخذ خراج كل بلد يُجليهم عنها سنة. تولى إمارة خُرَاسَان سنة ٧٩هـ، وقد أصيبت عينه يوم فتح سَمَرْقَنْد، كان مشهوراً بالكرم والحكمة والبلاغة. وتُوفِّي غازياً بإحدى مُدُن خُرَاسَان في (ذي الحجة ٨٣هـ)، ثم تولى ابنه يزيد خُرَاسَان.

(٢) يزيد بن المُهَلَّب: أبوخالد، وُلِد سنة ٥٣هـ / ٦٧٣م، وُلِّي خُرَاسَان بعد أبيه، ومكث في ولايته نحو ست سنين، ثم عزله الوليد بن عبدالملك بتحريض من الحَجَّاج، فحبسه الحَجَّاج فهرب، ولمَّا تولَّى سُلَيْمَان الخلافة ولاه العراق ثم خُرَاسَان، وعندما تولى عُمَر بن عبدالعزيز عزله وحبسه بحلب، ولَمَّا مات عُمَر أخرجه غلمانه وسار إلى البَصْرَة ودخلها وأعلن الخروج على بني أُمَيَّة، فقتله مسلمة بن عبدالملك في مكان يُسمى العقر بين واسط وبَغْدَاد سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م.

(٣) المُفَضَّل بن المُهَلَّب، أبوغَسَّان: ولاه الحَجَّاج خُرَاسَان سنة ٨٥هـ فمكث سبعة أشهر، وولاه سُلَيْمَان جُنْد فلسطين، ثم شهد مع أخيه يزيد قيامه على بني مَرْوَان في العراق، ولَمَّا قُتِلَ أخوه مضى بمن بقي معه إلى واسط، وقد أصيبت عينه، ثم انتقل إلى قندابيل (بالسِّنْد) فأدركه هلال ابن أحوز التميمي، وكان قد سَيَّرَه مسلمة بن عبدالملك بن مَرْوَان لقتاله، فقاتله المفضل وأصحابه، وتكاثر عليهم أصحاب مسلمة، فقتل المفضّل على أبواب قندابيل.
الزِّرِكْلِي: الأعلام، ج٧، ص٢٨٠.

وقد انعكست الخلافات والانقسامات التي أعقبت موت مُعَاوِيَة ٢ من سنة ٦٠هـ / ٦٧٩م إلى سنة ٧٢هـ / ٦٩١م على الفتوح في هذه المنطقة.

وأصبح المسلمون في موقفٍ دفاعيٍ، حيث اغتنم التُّرْك انشغال المسلمين بهذا الخلاف، فكانوا يغيرون على ديار الإسلام، ويحرضون أهل الصُّلْح من البلاد على الثَّورَة، وبلغوا في بعض هجومهم إلى قرب مدينة نَيسَابُور (١) في خُرَاسَان، وفقد المسلمون كثيراً من المناطق التي كانوا يسيطرون عليها.

وما إن تَمَكَّن الخليفة عبدالملك بن مَرْوَان (٦٥-٨٦هـ / ٦٨٤-٧٠٤م) من القضاء على مناوئيه، حتى بدأ يولي الفتح الاهتمام الواجب، وكان وُلاتُه على إقليم العراق هم مفتاح النَّجَاح على الجبهة الشرقية من الدَّولَة الإسلامية، وكان الحَجَّاج بن يوسف الثَّقَفِي (٢) الذي ولي العراق والمشرق سنة ٧٥هـ / ٦٩٤م ذا فضلٍ كبيرٍ؛ بسبب شدته في تحقيق قدرٍ كبيرٍ من الاستقرار في العراق - ولو ظاهرياً - مَكَّن من خروج الحملات العسكرية نحو الأقاليم الشرقية.

وقد اضطلع بعبء هذه الفتوحات ثلاثةٌ من قادة الحَجَّاج، وهم: المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة، وقتيبة بن مُسْلِم الباهلي (٣)، ومُحَمَّد بن القاسم الثَّقَفِي (٤).

أَمَّا المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة فقد ولاه الحَجَّاج بن يوسف الثَّقَفِي خُرَاسَان سنة ٧٨هـ / ٦٩٧م، وقام بفتوحاتٍ واسعةٍ فيما وراء النَّهَر

---

(١) نَيسَابُور: مدينة إيرانية تقع جنوبي غربي مشهد على بعد ١١٠كم، فتحها الأحنف بن قيس في خلافة عُمَر 2 ثم أعاد فتحها عبدالله بن عامر سنة ٣١هـ في خلافة عُثْمَان 2.

(٢) الحَجَّاج بن يوسف بن الحَكَم الثَّقَفِي: أبومُحَمَّد: وُلِدَ ونشأ في الطَّائِف، وانتقل إلى الشَّام، فلحق بروح بن زنباع - نائب عبدالملك بن مَرْوَان - ثم قلده عبدالملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبدالله بن الزُّبَير، فولاه مَكَّة والمدينة والطَّائِف، ثم أضاف إليها العراق والثَّورَة قائمة فيه، فقمع الثَّورَة وثُبِّتَت له الإمارة عشرين سنة، وبنى مدينة واسط، وكان سَفَّاحاً سَفَّاكاً باتفاق معظم المؤرخين، مات بواسط. الزِّرِكْلِي: الأعلام، ج٢، ص١٦٨.

(٣) قتيبة بن مُسْلِم الباهلي: أبوحفص، وُلِدَ سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م، وتولى الرَّي أَيَّام الخليفة عبدالملك بن مَرْوَان، وخُرَاسَان أَيَّام الوليد، فتح خوارزم، وسجستان، وسَمَرْقَنْد، وبُخَارَى وغزا أطراف الصين وانتصر على التُّرْك في مواقع كثيرة، وَوَطَّدَ الإسلام في تلك المناطق، واستمرت ولايته على بلاد ما وراء النَّهَر ١٣ سنة، حتى قُتِلَ سنة ٩٦هـ / ٧١٤م.

(٤) مُحَمَّد بن القاسم الثَّقَفِي: مُحَمَّد بن القاسم بن الحَكَم بن أبي عقيل، وُلِد سنة ٦٢هـ / ٦٨١م، لأبٍ كان والياً على البَصْرَة والسِّنْد من قِبَل الحَجَّاج بن يوسف، وظل مُحَمَّد بن القاسم قائداً للأمويين، حتى تُوفِّي سنة ٩٨هـ / ٧١٧م.

ففتح مدينة كَش [١] في مملكة الصُّغْد، ووجه منها حملةً بقيادة ابنه يزيد إلى مَلِكِ الخُتَّل واضطره إلى دفع الجزية. كما فتح يزيد قلعة نيزك بإقليم بادغيس [٢] بين مَرْو [٣] وهِرَات [٤]، وغزا خُوارِزْم، واستطاع المُهَلَّب وأبناؤه في مُدَّة عامين تقريباً أن يُعيدَ هيبة المسلمين في المنطقة، وإن كان لم يوفق في إقامةِ قواعدَ ثابتةً هناك.

شكل (١٢) الخليفة عبدالملك بن مَرْوَان

(١) كَش: قرية حصينة جداً، ولها نهران كبيران: نهر القصارين ونهر سرور، وفي عَامَّة كورها مياه جارية وبساتين حسنة، وفي جبالها العقاقير الكثيرة، وكش أهلها مسلمون، وبها غوص اللؤلؤ على أربعة فراسخ من شط فارس. الحَمَوِي: مُعْجَم البُلْدَان، ج٤، ص٤٦٢؛ الحِمْيَرِي: الرَّوض المِعْطَار، ص٥٠١.

(٢) باداغيس: عامرة ذات خيرات ولها حوالي ثلاثمائة قرية, وافتتحها عبدالرَّحْمَن بن سمرة أَيَّام مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان 2. اليعقوبي: البُلْدَان, ص١٠١؛ مُؤَلِف مجهول: حدود العالم من المشرق الى المغرب, ص١١٦.

(٣) لفظ مَرْو في العَرَبِيَّة يعني الحجارة البيضاء التي يُقتدَح بها، وقد كانت أشهر مُدُن خُرَاسَان، وتقع في واحةٍ كبيرةٍ بصحراء كاراكوم بجمهورية تركماستان على نهر مرجب، وكانت مركزاً للثقافة الإسلامية في العصور الوسطى.

(٤) هِرَات: تقع في إقليم سجستان شمالي غربي أفغانستان، فتحها الأحنف بن قيس سنة ١٨هـ / ٦٣٩م.

فتوحات قتيبة بن مُسْلِم في بلاد ما وراء النَّهَر:

بدأت المرحلة الحاسمة في الفتح والاستقرار مع تسلم قتيبة قيادة جيوش الفتح وولاية خُرَاسَان وبلاد الشرق سنة ٨٥هـ / ٧٠٣م، وظل والياً عليها إلى سنة ٩٩هـ / ٧١٧م، وقد كانت الظُّرُوف مواتيةً له تماماً، فالدَّولَة الأُمَوِيَّة كانت في أحسن حالاتها استقراراً وهدوءاً وثراءً، فاجتمع لقتيبة مهارة القائد وعَزْم الوالي الحَجَّاج بن يوسف الثَّقَفي وتشجيعه، وقُوَّة الدَّولَة وهيبتها، فكانت فتوحاته العظيمة في بلاد ما وراء النَّهَر.

ولم يكن قتيبة قائداً عسكرياً فحسب، بل كان إلى جانب ذلك رجل دولة، وصانع سياسة، وواضع نُظِمٍ وإدارة، فعمل بعد تسلمه أمور الولاية على القضاء على الخلافات العصبية التي كانت تعصف بالقبائل العَرَبِيَّة في خُرَاسَان، من جَرَّاء التنافس على الولايات، وجمع زعماءهم على كلمة واحدة تحت الجهاد، كما أنه عمل على كسب ثقة أهل خُرَاسَان الأصليين، فأحسن إليهم، وقَرَّبَهم، وعَهِدَ إليهم بالوظائف، فاطمأن الجميع إليه، ووثقوا به وبقيادته.

سار قتيبة على الخُطَّة نفسها التي سار عليها آل المُهَلَّب، وهي خُطَة الضربات السريعة المتلاحقة على الأعداء، فلا يترك لهم وقت للتجمع، غير أنه امتاز على المهالبة بأنه كان يضع لكل حملة خُطَةً ثابتةً، ويحدد لها وجهةً مُعَيَّنَةً، ويجتهد في الوصول إلى ما يقصده، غيرُ عابئٍ بالمصاعب، معتمداً على الله، ثم على بسالته النَّادِرَة، وروح القيادة التي امتاز بها، وإيمانه العميق بالإسلام.

ولقد مَرَّت خطوات قتيبة في فتح تلك البلاد على مدى عشر سنوات ٨٦-٩٦هـ / ٧٠٤-٧١٤م عبر مراحل أربع، حقق في كل منها فتحُ ناحيةٍ واسعةٍ فتحاً نهائياً، وثَبَّت أقدام المسلمين والإسلام فيها. وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى (٨٦-٨٧هـ / ٧٠٤-٧٠٥م):

وفيها أخضع قتيبة بن مُسْلِم إقليم طخارستان الواقع على ضفتي نهر جَيحُون، ويبدو أن أوضاعه لم تكن قد استقرت للمسلمين تماماً منذ أن فتحه الأحنف بن قيس [1] في خلافة عُثْمَان ابن عَفَّان 2، وكانت تلك بدايةٌ ناجحةٌ من قتيبة؛ فبدون توكيد

(١) الأحنف بن قيس: أبوبحر الضَّحَّاك بن قيس بن مُعَاوِيَة بن حصين المري السعدي، وُلِدَ في البَصْرَة سنة ٣ق.هـ، شَهِدَ فتح الأهواز ومناذر ونهر تيري سنة ١٧هـ / ٦٣٨م، وفي سنة ٢٢هـ / ٦٤٤م غزا بلاد خُرَاسَان، وتَمَكَّن من فتح هَرَاة عنوة، ثم دخل مرو الشاهجان فاتحاً، وفي عهد عُثْمَان 2 اشترك في إعادة فتح خُرَاسَان سنة ٣١هـ / ٦٥١م. واشترك مع علي 2 في معركة صفين، وفي قتال المُخْتَار الثَّقَفِي سنة ٦٧هـ / ٦٨٦م، وكان من المشهورين بالحلم والأناة حتى صار يُضرب به المثل أحلم من الأحنف. وتوفي بالكُوفَة سنة ٦٧هـ / ٦٨٦م، وقيل سنة ٧٢هـ / ٦٩١م.

أقدامه في «طخارستان» لم يكن ممكناً أن يمضي لفتح «ما وراء النَّهَر»، وقد أصبح يتمتع بهيبةٍ كبيرةٍ في تلك البلاد، فما إن يسمع الملوك بمسيره إليهم حتى يسرعوا إلى لقائه وطلب الصُّلْح.

المرحلة الثانية (٨٧-٩٠هـ / ٧٠٥-٧٠٨م):

وفيها فتح قتيبة إقليم بُخَارَى كله بعد حروب طاحنة وانتظام حملاته عليها.

المرحلة الثالثة (٩١-٩٣هـ / ٧٠٩-٧١١م):

وفيها أكمل فتح حوض جَيحُون كله, وأتم فتح سجستان ٩٢هـ / ٧١٠م، وإقليم خُوارِزْم ٩٣هـ / ٧١١م، وتَوَّجَ عمله بالاستيلاء على سَمَرْقَنْد أعظم مُدُن ما وراء النَّهَر.

ومن جميل ما يُروَى في فتح سَمَرْقَنْد أن المسلمين حينما دخلوها أخرجوا ما فيها من الأصنام وأحرقوها، وكان أهل سَمَرْقَنْد يعتقدون أن من استخف بها هلك، فلَمَّا أحرقها المسلمون ولم يصابوا بأذى, أسلم من أهلها خلقٌ كثيرٌ.

المرحلة الرابعة (٩٤-٩٦هـ / ٧١٢-٧١٤م):

وفيها عَبَرَ قتيبة نهر سيحون، وفتح الممالك السيحونية الثلاث: الشَّاش وأُشْرُوسَنَة [١] وفَرْغَانَة, ثم دخل أرض الصين، وأوغل في مقاطعة سنكيانج، ووصل إلى إقليم كاشغر [٢] وجعلها قاعدةً إسلامية، وتهيأ لفتح الصين لولا أن وفاة الحَجَّاج بن يوسف الثَّقَفِي سنة ٩٥هـ / ٧١٣م، والخليفة الوليد بن عبدالملك سنة ٩٦هـ / ٧١٤م جعلته يتوقف عند هذا الحد، لكنه أجبر ملك الصين على دفع الجزية. ونذكر هنا ثلاث ملاحظات جديرة بالتسجيل وهي:

١- كان أهل هذه البلاد جاهلين بحقيقة الإسلام، وتصوروا أن المسلمين إنما جاءوا للاستيلاء على خيرات بلادهم، الأمر الذي جعلهم يقاومون بشراسة، لكنهم لَمَّا عرفوا أن المسلمين ليسوا غزاة، وإنما هداة يحملون إليهم الإسلام، أقبلوا على اعتناقه والإيمان بمبادئه.

٢- كان السُّكَّان في هذه المناطق يرضون بالصُّلْح، أو يعتنقون الإسلام ظاهرياً في بداية الأمر كما أسلفنا، وما إن ينصرف الجُنْد المسلمون حتى ينقضوا العهد أو يرتدوا عن الإسلام، وهذا يُظهر بوضوح مدى منطقية

---

(١) أُشْرُوسَنَة: بلدةٌ كبيرةٌ، بينها وبين سَمَرْقَنْد ستة وعشرون فرسخاً، والغالب عليها الجبال. الحَمَوِي: مُعْجَم البُلْدَان, ج١، ص١٩٧.

(٢) كاشغر: مدينة في قلب جبال تيان شان أقصى التُّرْكستان شرق من طاشقند وسَمَرْقَنْد، وهي اليوم من تركستان الصينية.

مفهوم عُقْبَة بن نافع [1] - فاتح إفريقية ومؤسس مدينة القيروان فيها - بضرورة أن يكون الفتح معنوياً وليس عسكرياً, فالفتح المعنوي يحتاج إلى وجود مسلمين مقيمين في المنطقة بعد فتحها، يفتحون القلوب بالإيمان والعلم. أَمَّا الفتح العسكري فيتم بواسطة الجُنْد الذين يرتحلون بعد نجاح المُهمَّة العسكرية، فلا يحققون شيئاً في الواقع سوى فتح الأرض التي تنقض عليهم فور انسحابهم.

٣- لا شك أن قيادة قتيبة بن مُسْلِم الفذة وخُطَطه العسكرية المحكمة، ودعم القيادة العليا له - ممثلة بالحَجَّاج في العراق، والخليفة عبدالملك، ثم ابنه الوليد في الشَّام - إضافةً إلى ما كان من طاقات إيمانية عند الجُنْد: جعل النَّصْر حليف المسلمين في هذا الميدان، وقد ساعد ذلك - مع المعاملة الطَّيبَة لأهل البلاد - على تحويل المنطقة إلى دار إسلام.

وبوفاة قتيبة بن مُسْلِم الباهلي توقفت فتوحات المسلمين على هذه الجبهة عند الحد الذي تركها هو عليه، ذلك أنه لَمَّا تولى يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة على إقليم خُرَاسَان - ولاه عليها الخليفة سُلَيْمَان بن عبدالملك [2] سنة ٩٧هـ / ٧١٥م- وَجَّهَ اهتمامه إلى فتح جُرْجَان وطَبَرِسْتَان, ولم يكن المسلمون قد وطأوا أيهما من قبل، وذلك حتى يحقق فتحاً يغبط سُلَيْمَان ابن عبدالملك، كما كانت نجاحات قتيبة بن مُسْلِم تغبط الوليد بن عبدالملك.

ولقد استطاع القائد يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة أن يفتح جُرْجَان بالفعل صُلْحَاً، ثم توجه إلى طَبَرِسْتَان، فنقض أهل جُرْجَان عهدهم، فعاد وحاربهم وفتحها هذه المَرَّة عنوةً.

---

(١) عُقْبَة بن نافع بن عبدالقيس الأَمَوِي الفهري: وُلِدَ في حياة النَّبِي 6 ١ق.هـ. شهد مع عمرو 2- ابن خالته - فتح مصر، ثم شارك معه في المعارك التي دارت في إفريقية، فولاه عمرو برقة، وفي خلافة مُعَاوِيَة 2 ولاه إفريقية، وفي سنة ٥٥هـ عزله، فعاد للمشرق، وفي خلافة ابنه يزيد أعاد عقبة للولاية سنة ٦٢هـ، واستُشْهِدَ سنة ٦٣هـ في مكان يعرف حتى الآن باسم سيدي عُقْبَة.

(٢) سُلَيْمَان بن عبدالملك بن مَرْوَان، أبوأيوب: الخليفة الأُمَوِي، وُلِدَ في دمشق، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦هـ، وتوفي في دابق (من أرض قنسرين- بين حلب ومعرة النُّعْمَان) وكانت عاصمته دمشق، ومُدَّة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أيَّاماً. الزِّرِكْلِي: الأعلام, ج٣، ص١٣٠.

شكل (١٣) فتوح قتيبة بن مسلم

وظل الجهاد والاستعداد للغزو قائماً في هذا الجانب من العالَم إلى نهاية حُكْم بني أُمَيَّة، ومِمَّا يلاحظ في هذا الميدان أن التُّرْك الذين ظلوا ينزلون خارج دائرة سُلْطَان المسلمين من بلاد ما وراء النَّهَر كانوا - بعد فتوحات قتيبة بن مُسْلِم - لا ينفكون يهجمون على المناطق التي دخلت في سُلْطَان المسلمين، ويحرضون أهلها على الثَّورَة والعصيان، فكان المسلمون يقومون بإخضاعهم وإعادة البلاد إلى الطَّاعَة.

ولا شك أن هذا الميدان كان من أشد الميادين قتالاً، ولم يكن دار حرب أشد من بلاد التُّرْك، ولكنها تحولت بعد الجهود المتوالية إلى دار إسلام، وأصبحت في فترة تالية كعبة العِلم والعُلَمَاء، ونشأت فيها مراكز حضارية مثل: بُخَارَى، وبلخ، وسَمَرْقَنْد، ونَيسَابُور، وهُرَاة، ومَرْو، والرَّي،

وجُرْجَان، وسرخس [1]، وطَبَرِسْتَان، وغيرها. وخَرَّجَت هذه المُدُن عدداً هائلًا من العُلَمَاء استضاءت بهم الأُمَّة، وملأت أسماؤهم سمع الدُّنْيَا وبصرها، واليوم تتوزع هذه البلاد بين إيران وأفغانستان، أَمَّا الجزء الأكبر منها فيقع في الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى كازاخستان وأوزبكستان وتركمانستان وطاجكستان وقيرغيزيا.

الخط الجنوبي: فتح بلاد السِّنْد «حملات مُحَمَّد بن القاسم»:

انقسمت شبه القارة الهِنْدية في القديم إلى قسمين جغرافيين كبيرين، هما: «بلاد السِّنْد والبِنْجَاب» و«بلاد الهِنْد»، وبلاد السِّنْد هي البلاد المحيطة بنهر السِّنْد، الذي كان يسمى من قَبل بنهر مِهْرَان [2]، وينبع من عيون في أعالي السِّنْد وجبالها من أرض قشمير - وتعرف في الزَّمن الحاضر بكشمير- ويصب في بحر السِّنْد، وهو المحيط الهِنْدي.

(١) سرخس: مدينة بينها وبين نَيسَابُور ستة مراحل، وهي بين نَيسَابُور ومرو، وهي بلد جليل، ومدينته عظيمة، وهو في برية في رمال فيها أخلاط من النَّاس، لها رساتيق وقُرَى. الحِمْيَرِي: الرَّوض المِعْطَار, ص٣١٦.

(٢) نهر مِهْرَان: اسمٌ أعجميّ: موضع لنهر السِّنْد، قال حَمْزَة: وأصله بالفَارِسِيَّة مهران روذ، وهو واد يقبل من الشرق حتى يقع في أسفل السِّنْد, ويصبّ في بحر فارس، وهو نهرٌ عظيمٌ بقدر دجلة تجري فيه السُّفُن ويسقي بلاداً كثيرة، وفيه تماسيح مثل ما في نهر النيل. الحَمَوِي: مُعْجَم البُلْدَان, ج٥، ص٢٣٢.

وتمتد هذه البلاد غرباً من إيران، إلى جبال الهمالايا في الشمال الشرقي، تاركةً شبه القارة الهِنْدي في جنوبها، وتُكَوِّنُ الآن جزءاً كبيراً من دولة باكستان الحالية.
ومن أشهر مُدُن بلاد السِّنْد: مدينة الدَّيبُل» (١) - وهي مدينةٌ تقع مكان مدينة كراتشي الحالية, وكذلك قَنْدابيل (٢), وقِيقَان (٣), ولاهور (٤), وقُصْدَار (٥), والميد (٦), والملتان (٧), المجاورة للهند، وتقع على أعلى رافد من روافد نهر مِهْرَان. وكان العرب يطلقون على السِّنْد من الأسماء: ثغر الهِنْد؛ لأنه كان في ذلك الوقت المعبر إلى بلاد الهِنْد.
وقد سبق الفتح المنظم لبلاد السِّنْد سلسلة من الحملات والغزوات قام بها المسلمون منذ وقت مبكر، لمعرفة طبيعة البلاد وجمع المعلومات عنها، كما حدث لبلاد ما وراء النَّهَر.
وكانت البداية مبكرة في عهد الخليفة عُمَر بن الخَطَّاب 2، وتتابعت الغزوات بعده في خلافة كل من عُثْمَان بن عَفَّان وعلي بن أبي طالب ومُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان 2، وحقق المسلمون فيها انتصارات عديدة، وغنموا مغانم كثيرة، إلى أن جاء عهد الوليد بن عبدالملك ٨٦-٩٦هـ / ٧٠٤-٧١٤م، فجاء عهد الفتح المنظم لهذه البلاد.

(١) الدَّيبُل: مدينةٌ مشهورةٌ على ساحل بحر الهِنْد. الحَمَوِي: مُعْجَم البُلْدَان, ج٢، ص٤٩٥.

(٢) قَنْدابيل: مدينة بالسِّنْد وهي قصبة لولاية يقال لها النّدهة، ومن قصدار إلى قندابيل خمسة فراسخ، ومن قندابيل إلى المَنْصُورة ثماني مراحل، ومن قندابيل إلى الملتان نحو عشر مراحل. الحَمَوِي: مُعْجَم البُلْدَان, ج٤، ص٤٠٢.

(٣) قِيقَان: منطقة بين خُرَاسَان وسجستان في شمالي أفغانستان الحالية.

(٤) لاهور: من أهم مُدُن إقليم البِنْجَاب. تقع على الجانب الأيمن لنهر رافي، وتعد المدينة الثانية في باكستان، ازدهرت تحت حُكْم المُغُول المسلمين خلال القرنين ١٠، ١١هـ / ١٦، ١٧م، وفي القرن ١٣هـ / ١٩م أصبحت عاصمة السيخ.

(٥) قُصْدَار: ناحية مشهورة قرب غَزْنَة، قيل: أنها من بلاد الهِنْد. وقيل: من بلاد السِّنْد وهو الصحيح، وهي قصبةٌ ناحية يقال لها طوران، وهي مدينةٌ صغيرةٌ لها رستاق ومُدُن. البَغْدَادي: مراصد الإطلاع, ج٣، ص١٠٩٥.

(٦) الميد: ويعيش فيها قبائل الميد فهم على شطوط مِهْرَان من حدّ الملتان إلى البحر، ولهم في البرية التي بين مِهْرَان وبين قامهل مراع ومواطن كثيرة، ولهم عددٌ كثيرٌ. الإصطخري: المسالك والممالك, ص١٠٥.

(٧) الملتان: مدينة في آخر بلاد السِّنْد، وبعضهم يجعلها من الهِنْد، وبها صنم يُعَظِّمُه أهل الهِنْد، ويحجون إليه، ويتصدقون عليه بأموالٍ جمةٍ وحلي كثير، وسميت الملتان باسم الصنم، وبيت هذا الصنم في وسط الملتان، وبأعمر سور فيها، والملتان مدينةٌ كبيرةٌ عامرةٌ عليها حصن منيع، ولها أربعة أبواب، وبخارجها خندق، ونعمها كثيرة وأسعارها رخيصة، وإنما سميت الملتان لأن معناها فرج بيت الذَّهَب، وكان مُحَمَّد بن يوسف أخو الحَجَّاج أصاب فيها أربعين بهاراً من الذَّهَب، والبهار ثلثمائة وثلاثة وثلاثون مناً، وكلها في بيت، فسمي ذلك فرج الذَّهَب، والفرج الثغر. الحِمْيَرِي: الرَّوض المِعْطَار, ص٥٤٦.

شكل (١٤) فتوحات محمد بن القاسم الثقفي

وبعد أن استقام الأمر للحَجَّاج بن يوسف في جنوبي بلاد فارس، وتوطدت أقدام المسلمين هناك، وقضى على تمرد الملك رتبيل ملك سجستان، وأخضع بلاده, بدأ يَعُدُ العُدَّة لفتح إقليم السِّنْد نهائياً، فأرسل عِدَّة ولاة قُتِلُوا في الغزو واحداً بعد آخر، إلى أن استقر رأيه على تعيين قائدٍ كبير أسند إليه هذه المُهِمَّة وهو ابن أخيه وصهره مُحَمَّد بن القاسم الثَّقَفِي، الذي عُرِفَ بفاتح السِّنْد، وكان والياً على فارس في سن السابعة والعشرين من عمره، وجهزه بما يكفل له النَّجَاح من عِدَّة وعتاد، وأَمَدَّه بستة آلاف جُنْدِي من أهل الشَّام، إضافة إلى ما كان معه من الجُنُود، فاجتمع تحت قيادته نحو عشرين ألفاً في تقدير بعض المؤرخين، وأنفق الحَجَّاج على الجيش ستين ألف ألف (٦٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم.

شكل (١٥) الحجاج بن يوسف الثَّقَفِي

ويمكن تلخيص مراحل الفتح التي قام بها مُحَمَّد بن القاسم في الخطوات الآتية:

١- سار مُحَمَّد بن القاسم بجنده من شيراز (١) إلى مُكْرَان، وأقام بها أيَّاماً, واتخذ منها قاعدةً للفتح ونقطة انطلاق، ثم فتح قنزابور، ثم أَرْمَئِيل (٢).

٢- ثم تقدم لفتح الدَّيبُل - وتقع الآن قريبة من كراتشي في دولة باكستان - وجعل عتادة أزواده في سُفُن أرسلها بالبحر من أَرْمَئِيل، وحاصر الدَّيبُل، ونصب عليها المَنْجَنِيق، وفتحها بعد قتال عنيف دام ثلاثة أيَّام، وهدم البد (كل تمثال أو معبد لبوذا) الكبير بها، وكل بد آخر، ثم حولها إلى مدينةٍ إسلاميةٍ، وأزال منها كل آثار البوذية, وبنى بها المساجد, وأسكنها أربعة آلاف مُسْلِم.

---

(١) شيراز: مدينة في جنوب إيران، وهي عاصمة إقليم فارس، وتنقسم إداريّاً إلى ثلاثة أقسام: القسم المركزي، وزركان، ومسروستان. تعد إحدى المُدُن الزراعية المُهِمَّة بإيران، وتشتهر بزراعة الأرز والحبوب وقصب السُّكَّر والبنجر والقطن الصيفي، كما يتميز العنب الذي يُزرع فيها بجودته عالميّاً بين دول الشرق المنتجة له.

(٢) أَرْمَئِيل: مدينةٌ كبيرةٌ بين مُكْرَان والدَّيبُل من السِّنْد، بينها وبين البحر نصف فرسخ. الحَمَوِي: مُعْجَم البُلْدَان, ج١، ص١٥٩.

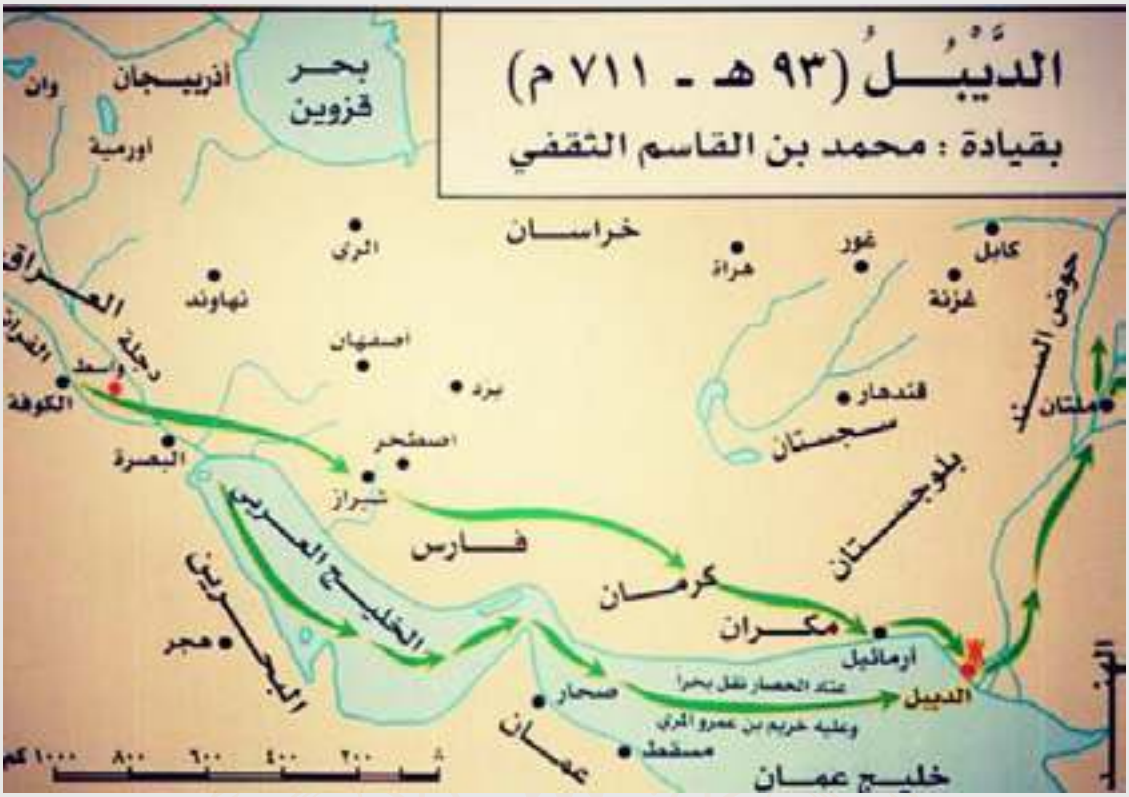

شكل (١٦) فتح الديبل بقيادة محمد بن القاسم الثقفي

٣- كان لفتح المسلمين مدينة الدَّيبُل أثرٌ كبيرٌ على أهل السِّنْد، فسارعوا يطلبون الصُّلْح، فصالحهم مُحَمَّد بن القاسم ورفق بهم، ثم سار إلى مدينة البيرون [١] - حيدار أباد السِّنْد حالياً - فصالح أهلها، وجعل لا يمر بمدينةٍ إلا فتحها صلحاً أو عنوة، حتى بلغ نهر مِهْرَان، فعبر النَّهَر، وفاجأ داهر ملك السِّنْد، والتقى معه في معركةٍ حاميةٍ ٩٣هـ / ٧١١م قُتِلَ فيها الملك، وانقض جمعه، وبمقتله استسلمت بقية بلاد السِّنْد، وأصبحت جزءاً من بلاد الإسلام.

٤- مضى مُحَمَّد بن القاسم يستكمل فتحه، فاستولى على مُدُنٍ وحُصُونٍ كثيرةٍ إلى أن اجتاز نهر بياس واقتحم مدينة الملتان في إقليم البِنْجَاب, في جيشٍ عدده خمسون ألفا من الجُنُود والفُرْسَان، عُشرهم فقط من الجيش الأصلي الفاتح،

(١) مدينة البيرون: يُنتسب إليها أبوالريحان البيروني وهو تلميذ ابن سينا، وهذه المدينة من فرض بلاد السِّنْد التي على خليجهم الملح الخارج من بحر فارس، والنَّهَر المنسوب إليها في شرقيها ينصب في الخليج، ومنبعه من جبال كَابُل المتصلة بجبال تخارستان، وهي هنالك منبع بعض الأنهار مثل جَيحُون الجاري إلى الشمال.

ومعظمهم مِمَّن انضم إلى المسلمين بعد نجاحهم في المعارك السَّابِقَة، فاستولى على المدينة بعد قتالٍ عنيفٍ، وقضى على كل التماثيل والمعابد البوذية هناك، وغَنِمَ مغانم كثيرة من الذَّهَب والفِضَّة، ولهذا سميت الملتان بيت أو ثغر الذَّهَب. وقد اتبع مُحَمَّد الثَّقَفِي في مدينة الملتان ما اتبعه في المُدُن الأخرى التي فتحها، من حيث التنظيمات المالية والإدارية والعسكرية، فَعَيَّن الحُكَّام على كورها المختلفة، وترك بها حاميةً من الجُنُود، وأخذ العهود والمواثيق على أعيان المدينة بأن يعملوا على استقرار الأمن.

٥- في أثناء وجود مُحَمَّد بن القاسم في الملتان جاءه خبر وفاة الحَجَّاج، فاغتم لذلك، لكنه واصل فتوحاته حتى أتم فتح بلاد السِّنْد، وجاءته قبائل الزُّط [١] والميد - المعروفين بقطع الطُّرُق البرية والبحرية - مرحبين به، وتعهدوا له بالطَّاعَة والعمل على سلامة الطُّرُق في البر والبحر.

٦- انتهت أعمال ابن القاسم الحربية بإخضاع إقليم «الكيرج» على الحدود السِّنْدِيَّة الهِنْدِيَّة وهزيمة مَلِكِه دوهر ومقتله؛ ودخول أهله في طاعة المسلمين.

شكل (١٧) مُحَمَّد بن القاسم الثَّقَفِي

(١) الزُّط: هم أُمَّة من عوام السِّنْد وبواديهم، يُضرب بها المثل في الركاكة، ومنازلهم في أخصاص كرجالة البرابر على أنهارٍ وبركٍ، وأصلها من نهر البيرون.

وكان مُحَمَّد بن القاسم الثَّقَفِي يتطلع إلى فتح إمارة كنوج قَنُّوج [١]، وهي من أعظم إمارات الهِنْد، والتي كانت تمتد من السِّنْد إلى البِنْغَال [٢]، فاستأذن الحَجَّاج فَأَذِنَ له، وبينما هو على أتم الاستعداد لذلك كخطوة أولى نحو الوصول إلى كشمير وإتمام فتح كل السِّنْد والهِنْد، إذ وصله موت الحَجَّاج سنة ٩٥هـ / ٧١٣م، ومن بعده بستة أشهر الخليفة الوليد بن عبدالملك سنة ٩٦هـ / ٧١٤م، وتولى أخوه سُلَيْمَان الخلافة، وكان سُلَيْمَان ينقم على الحَجَّاج وصنائعه.

لأنه أقر الوليد بن عبدالملك على خَلْعِ بيعةَ سُلَيْمَان وعقدها لابنه عبدالعزيز بدلاً منه، ومن ثم فما أن تولى سليمان حتى عَزَلَ مُحَمَّد بن القاسم الثَّقَفِي عن ولاية السِّنْد، وأمر به مقيداً إلى مدينة دمشق حيث عُذِّبَ حتى الموت، دون أن يشفع له جهاده في سبيل نشر الإسلام في مناطق استعصت على المسلمين طويلاً، بل كان الاعتبار الأهم هو للأهواء الشخصية.

ويعلق الدكتور «عبدالله جمال الدِّين» على مقتل ابن القاسم بقوله: «وإن المرء ليعجب كيف تنتهي حياة ذلك الشاب بهذه الصورة المريرة، وهو الذي فتح كل بلاد السِّنْد، ونشر الإسلام في كافة أرجائها في فترةٍ قياسيةٍ لم تتجاوز السنوات الثلاث؟ كيف يواجه مُحَمَّد بن القاسم هذا المصير المؤلم ويُجْزَى ذلك الجزاء المهين؟ لقد تضاءلت أمام أعماله الحربية والسياسية عظمة الإسكندر المقدوني وشهرته، إذ بينما عجز الإسكندر قبل ألف عام عن الاستيلاء على قسم ضئيل من الهِنْد كان سكانه أقل من ربع السُّكَّان، زمن ابن القاسم استطاع هذا الفتى أن يخضعها ويلحقها بالدَّولَة الإسلامية من غير كبير عناء».

ويعلق الدكتور «عبدالله جمال الدِّين» على مقتل ابن القاسم بقوله: «وإن المرء ليعجب كيف تنتهي حياة ذلك الشاب بهذه الصورة المريرة، وهو الذي فتح كل بلاد

(١) قَنُّوج: قال المُهَلَّبي في العزيزي: قنّوج مدينة في أقاصي الهِنْد، وهي في جهة الشرق عن الملتان وبينهما مائتان واثنان وثمانون فرسخا، وقنّوج مصر الهِنْد وأعظم المُدُن، وقد بالغ النَّاس في تعظيمها حتى قالوا إن بها ثلاثمائة سوق للجوهر ولملكها ألفان وخمسمائة فيل، وهي كثيرة معادن الذَّهَب. المُهَلَّبي: المسالك والممالك, ص١٣٦.

(٢) البِنْغَال: تقع في إقليم البِنْغَال في الشمال الشرقي لشبه الجزيرة الهِنْدية، ويشمل هذا الإقليم نهر الجانج وبراهما بترا وفروعهما العديدة، من سفوح الهملايا شمالاً إلى ساحل خليج البِنْغَال، تبلغ مساحة البِنْغَال نحو ٨٣ ألف ميل مربع، ويُنْسَب فتح المسلمين لإقليم البِنْغَال إلى مُحَمَّد بختيار خلجي قائد السُّلْطَان معزالدِّين مُحَمَّد الغوري منذ عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م، واتخذ المسلمون لخنوتي عاصمةً لهم، وحكمها بعد ذلك سلاطين عدة، وتنقلت عاصمتها بين كور، وراج محل، ودكا، ومرشد آباد.

السِّنْد، ونشر الإسلام في كافة أرجائها في فترةٍ قياسيةٍ لم تتجاوز السنوات الثلاث؟ كيف يواجه مُحَمَّد بن القاسم هذا المصير المؤلم ويُجْزَى ذلك الجزاء المهين؟ لقد تضاءلت أمام أعماله الحربية والسياسية عظمة الإسكندر المقدوني وشهرته، إذ بينما عجز الإسكندر قبل ألف عام عن الاستيلاء على قسم ضئيل من الهِنْد كان سكانه أقل من ربع السُّكَّان، زمن ابن القاسم استطاع هذا الفتى أن يخضعها ويلحقها بالدَّولَة الإسلامية من غير كبير عناء».

وقد قال مؤرخ إنجليزي: «لو أراد ابن القاسم أن يستمر بفتوحاته حتى الصين لما عاقه عائق، ولم يتجاوز أحد من الغزاة فتوحاته إلى أَيَّام الغَزْنَوِيين، لقد كان واحداً من عظماء الرِّجَال في كل العصور».

ومهما يكن من أمرٍ فقد توقفت الفتوحات في جبهة السِّنْد بمجرد مغادرة مُحَمَّد بن القاسم البلاد، وانكمش المسلمون في المناطق التي تم فتحها من قبل، وتَرَكَت الأوضاع السياسية السيئة في عاصمة الخلافة - دمشق - تأثيرها على الاستقرار والأمن في شبه القارة الهِنْدية، فقامت الثَّوَرَات والفتن في بعض المناطق الخاضعة للمسلمين، وحاول بعض أُمَرَاء السِّنْد وملوكها الذين قد فروا إلى كشمير وغيرها العودة إلى البلاد، ونجح بعضهم في استعادة سُلْطَانِه ونفوذه، مستفيدا من الاضطرابات الداخلية في العالَم الإسلامي.

ولَمَّا تولى عُمَر بن عبدالعزيز (١) الخلافة (٩٩-١٠١هـ / ٧١٧-٧١٩م) كتب إلى ملوك السِّنْد يدعوهم إلى الإسلام والطَّاعَة، فدخلت بلاد السِّنْد كلها في طاعة المسلمين، وأَسلَم أهلها وملوكها وتسموا بأسماء العرب، وبهذا أصبحت بلاد السِّنْد بلاد إسلام، ثم عادت واضطرب في أواخر بني أُمَيَّة، إلى أن انتظمت في خلافة أبي جَعْفَر المَنْصُور العَبَّاسي (١٣٦-١٥٧هـ / ٧٥٣-٧٧٣م)، وفي أَيَّامه افتتحت كشمير ودخلت في دولة الإسلام.

ثم إن الفتح الإسلامي للسِّنْد لم يكن فتحاً عسكرياً فحسب، وإنما - كما حدث في الجبهات الأخرى - تنقلت العشائر العَرَبِيَّة إلى هناك، وحمل العرب إلى البلاد أسلوبهم نفسه في الحياة، كما انتشرت الثقافة الإسلامية والعَرَبِيَّة في المُدُن التي سَتُنْشَأ فيما بعد، مِمَّا ساعد على نشر الإسلام والعَرَبِيَّة، بل هاجرت إلى الهِنْد الصور الفكرية نفسها التي طَبَعَت العالَم الإسلامي في القرن الأول الهجري، كما انتقلت إليها فرق ودعايات الخروج والشِّيعَة.

(١) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة: ص١٢.

ضعف الخلافة:

يُعتَبَر الجيشُ الدعامة الرئيسية التى اعتمد عليها الخلفاء العباسيون فى تثبيت دعائم حكمهم، غير أن الصفة لهذا الجيش أخذت تضعف منذ عهد المأمون، حيث أنشأ فرقةً جديدةً اعتمد عليها، ثم إن العرب أخذوا يلتفون حول العباس بن المأمون ضد المعتصم الذى نَكَّلَ بزعائمهم بعد توليه الخلافة وأساء الظن بهم(١).

شَعَرَ المعتصم بأن موقفه أصبح حرجاً، ولذلك كان بحاجة إلى عنصرٍ حربى جديد يعتمد عليه فى مواجهة الأخطار التى تجابهها الدولة، وأهمها ثورة بابك الخرمى وخطر البيزنطيين واعتداءاتهم المتوالية على حدود الدولة وتذمر أهل الشام ومصر(٢).

استخدم المعتصم عنصر الأتراك، فقد استقدم عام ٢٢٠هـ / ٨٣٥م قوماً من بخارى سمرقند وفرانة وأشروسنة، ووصل عددهم إلى حوالى ١٨ ألف، وقد ميزهم المعتصم بلباس من الديباج عليه مناطق مذهبة(٣)، وكانت أعدادهم تصل إلى عشرات الألاف.

وقد ترتب على الاعتماد على الأتراك والإكثار منهم فى الدولة نتائج وخيمة، إذ ان هذا العنصر رغم شجاعة عناصره العسكرية إلا أنه لا يفهم إلا الأسس المعنوية للدولة العباسية، وليست له خبرة فى الإدارة(٤).

لذلك فلا غرابة أن يكون ظهور الأتراك فى الدولة سبباً فى انتشار الفوضى وعاملاً من عوامل ضعف الدولة، فقد أحدثت تصرفات الجند الأتراك تذمراً لدى أهل بغداد، مما دفعهم إلى الثورة والاحتجاج لدى المعتصم على وجود جنده بينهم وهددوه بالحرب: «إما أن تخرج من بغداد، فإن الناس قد تأذوا بعسكرك أو نحاربك»(٥). أدرك المعتصم الموقف وخطورته، فأخرج الأتراك من بغداد إلى مكان سامراء وبنى لهم مدينة سر من رأى سنة ٢٢١هـ / ٨٣٤هـ.

---

(١) الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة: ص١٢.

(٢) مروج الذهب: ج٤، ص٥٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ج٩، ص٣٣٨، القاهرة ١٩٣٩.

(٣) البداية والنهاية: ج: ص ٣٣٨؛ لوبون: حضارة العرب: ص١٧٧.

(٤) دراسات فى العصور العباسية المتأخرة: ص١٢.

(٥) معجم البلدان: ب د، ص١٤.

شكل (١٨) الخليفة المعتصم

وصل الأتراك فى زمن الخليفة الواثق إلى مناصب قيادية فى الجيش واعتمد عليهم فى حكمه، حتى صاروا يتدخلون فى الحكم، وقد أشار السيوطى إلى ذلك بقوله:(١) «إن الواثق كان أول خليفة استخلف اشناس التركى السلطة وألبسه تاجاً»، وقد منح هذا الخليفة الأتراك صلاحياتٍ واسعة أدت إلى زيادة نفوذهم، ولا سيما عندما لم يتمكن من تعيين ولياً للعهد بعده، فجعل بذلك المجال مفتوحاً للأتراك للتدخل فى اختيار الخليفة(٢)، وقد قوى نفوذ الجند الأتراك، ولا سيما القائد (إيتاخ) والقائد (وصيف) اللذين يرجع إليهما انتخاب المتوكل بعد وفاة أبيه الواثق، ومنذ ذلك الوقت أخذ نفوذهم يستفحل فى جميع أجهزة الدولة وصار أمر اصطدامهم بالخليفة المتوكل أمراً منتظراً.(٣)

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء: ص٢٢٦.

(٢) الطبرى: ج١١، ص٩ وما بعدها-إبراهيم بيضون: التاريخ السياسى للدولة العباسية، ص٨٤.

(٣) الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة: ص٤١.

ورغم أن المتوكل أَيَّدَ جانب السُّنة والجماعة فى الفضاء على المعتزلة ليكسب تأييد الناس ضد القادة الأتراك والوقوف فى وجه طموحاتهم السياسية، إلا أن سياسة اضطهاد أصحاب المذاهب الأخرى ومطاردة العلويين والتنكيل بهم وبأنصارهم ومصادرة أموالهم قد أدت إلى سوء التفاهم بين العباسيين والعلويين، وجلبت سخط كثيراً من الناس، فغطت هذه السيئة جميع حسناته»[١].

ورغم أن المتوكل قد حاول السيطرة على أمور الدولة، ونجح إلى حدٍ كبيرٍ، إلا أن نهايته كانت على يد الأتراك، فكانت نهاية المتوكل بداية النهاية لسلطة الخليفة العباسى ، حيث صار صنع القادة العسكريين الأتراك يعزلون ويقلدون من أرادوا بقوة سيوفهم. ويرى أحمد شلبى [٢]أن نقل المتوكل فاتحة عهد أسود للخلافة العباسية، حيث استمر هذا الأسلوب طيلة عهد الأتراك، واستمر فيما بعد إلى عهد البويهيين، حيث تعرض الخلفاء خلال هذين العهدين إلى سمل العيون، وإلى القتل والتعذيب، وكان خلع الخلفاء أسهل ما ينزل بهم من الأذى، وقليلٌ من الخلفاء من نجا من هذا المصير.

ولم يبق للخلفاء بعد مقتل المتوكل شئ. يقول ابن طبطبا[٣]: «استولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير، إن شاؤا أبقوه، وإن شاؤا أخلعوه، وإن شاؤا قتلوه».

ولم يبق للخلفاء بعد مقتل المتوكل شئ. يقول ابن طبطبا[٤]: «استولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير، إن شاؤا أبقوه، وإن شاؤا أخلعوه، وإن شاؤا قتلوه».

نتج عن نفوذ الأتراك انتشار الفوضى والاضطراب الشديد، فاقترفوا الفضائح، وانحطت هيبة الخلافة، فتجرأ أمراء الأقاليم على الانفصال ولا سيما فى إيران ومصر، كما فقدت الوزارة هيبتها، واختلت الإدارة وأصبح المجال مفتوحاً لظهور التيارات الثورية الاجتماعية المكبوتة، وكادت أن تقضى عليها[٥] مثل ثورات القرامطة

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٧، ص٤١.

(٢) أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى، ج٤، ص٢٩.

(٣) ابن طباطبا: الفخرى فى الأدب السلطانية: ص١٨١.

(٤) ابن طباطبا: الفخرى فى الأدب السلطانية: ص١٨١.

(٥) عبدالكريم غرايبة العرب والأتراك: ص ٨.

وحركة الزنج، لقد استبد الأتراك - كما ذكرنا - بالخلفاء بعد المعتصم، وبالغوا فى كسر شوكتهم وكف أيديهم عن السلطة، وكان من قبلهم الفُرس قد ازدادوا قوةً فى عهد المأمون، وصاروا يتدخلون فى السلطة العباسية عندما اعتمد عليهم فى إدارة الولايات الشرقية، فلما استبد الأتراك بالأمر أدرك الفُرس أن سلطتهم قد ذهبت، وأن نفوذهم تلاشى فى دار الخلافة، فاستعاضوا عن ذلك بالانفصال عن الدولة والاستقلال بإماراتهم.

وقد كثرت الحركات المعارضة للدولة فى المشرق الإسلامى بشكل واضح خلال القرن الثالث الهجرى، فقامت دويلاتٌ مستقلةٌ فارسيةٌ وتركيةٌ أشهرها: الدولة الأموية فى الأندلس (١٣٨-٣٩٧هـ / ٧٥٦-١٠٩٢م) على يد عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك (المُلَقَّب بالداخل)

وتأسست دولة الإدارسة فى المغرب الأقصى (١٧٢-٣١١هـ / ٧٨٨-٨٣٢م) على يد إبراهيم بن الأغلب

وظهر الطولونيون (٢٥٢-٢٩٢هـ / ٧٨٨-٨٣٢م) على يد إبراهيم بن الأغلب، وظهر الطولونيون (٢٥٢-٢٩٢هـ / ٨٦٨-٩٠٥م)، والإخشيديون (٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٣٥-٩٦٩م) والفاطميون (٣٥٨-٥٦٧هـ / ٩٦٩-١١٧١م) فى مصر.

وفى المشرق الإسلامى قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ / ٨٢٠-٨٧٢م) فى خراسان، وبعدها الدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠هـ / ٧٦٨-٩٠٣م) على يد يعقوب بن الليث الصفار، والدولة السامانية (٢٦٧-٣٨٩هـ / ٨٧٣-٩٩٩م) التى تفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٥١-٥٨٢هـ / ٩٦٢-١١٣٦م) فى أفغانستان والهند.

ويُلاحظ أن المشرق الإسلامى كان بالنسبة للخلافة العباسية هو المُعين الخصيب

الذى تستمد منه قوتها وأنظمتها منذ بداية نشر دعوتها، لهذا حدث ارتباطاً بين المشرق والخلافة يقوم على الولاء لها حتى فى أقوى فترات ضعفها، ويلاحظ ذلك بصورة واضحة فى حرص هذه الدول التى استقلت على إعلان تبعيتها وولائها عن طريق الدعاء للخليفة على المنابر، وكتابة اسمه على النقود والباب الجزية إلى بغداد فى كل عام، وهذا عكس دول المغرب التى استقلت تماماً عن الخلافة مثل الأدارسة والأمويون فى الأندلس وغيرهم.

إن هذه الحركات الانفصالية التى قامت فى المشرق والمغرب الإسلامى قد أثرت على وحدة الدولة الإسلامية، لكنها فى الوقت نفسه كان لها أثرٌ كبيرٌ فى تقديم الحضارة الإسلامية، حيث ظهر فى كل منها مراكز حضارية تنافس بغداد مثل قرطبة والقاهرة وبخارى، وصار كلٌ منها قِبْلةً للعلماء والأدباء والشعراء والكُتَّاب يتنقلون بينها، ويُغْدِق عليهم أمراء هذه الدول الكثير، وفيما يلى لمحة عن كل من الدولتين السامانية والغزنوية [1].

شكل (١٩) قيام الدولة العباسية

(١) تاريخ المشرق الإسلامي من القرن الخامس وحتى القرن السابع الهجري: الدكتور: جميل بيضون، شحادة الناطور، أحمد عودات، إربد، مكتبة دار الأمل، ١٩٨٩، ص٩ : ١٣.

شكل (٢٠) حدود الدولة العباسية

شكل (٢١) الدولة العباسية في أقصى اتساعها

تدريبات الفصل الثاني

حدد صواب أو خطأ العبارة التالية:

(١)ينتمي الهياطلة والنجتيين إلى الأتراك الغزية:

- ○ صواب
- ○ خطأ

(٢)استطاع القائد محمد بن القاسم أن يفتح جرجان:

- ○ صواب
- ○ خطأ

(٣)وصل الأتراك في عهد الخليفة الواثق إلى مناصب قيادية في الجيش:

- ○ صواب
- ○ خطأ

اختر الإجابة الصحيحة مما يلي:

(٤)هو من قادة الحجاج بن يوسف الثقفي قام بفتح مدينة كش:

- ○ المهلب بن صفرة
- ○ قتيبة بن مسلم
- ○ محمد بن القاسم

(٥)القائد الذي فتح بخارى هو:

- ○ قتيبة بن مسلم
- ○ يزيد بن المهلب
- ○ المهلب بن صفرة

(٦)أول خليفة يستخلف أشناس التركي السلطة هو:

- ○ الخليفة المتوكل
- ○ الخليفة المعتصم
- ○ الخليفة الواثق

الفصل الثالث

الدول المستقلة في المشرق الإسلامي

الفصل الثالث
الدول المستقلة في المشرق الإسلامي

الأهداف:

عزيزي الطالب .. بعد الإنتهاء من دراسة هذا الفصل ينبغي عليك أن تكون قادرًا على أن:

(١) تشرح قيام الدولة الطاهرية.
(٢)تشرح قيام الدولة الصفارية.
(٣) تذكر عوامل زوال الدولة السامانية.
(٤) توضح أثر الدولة السامانية في الحضارة العربية الإسلامية.

الدولة الطاهرية: (٢٠٥-٢٥٩هـ / ٨٢٠-٨٧٢م):

تُنسب هذه الدولة إلى طاهر بن الحسين، والطاهريون ينتمون إلى أصل فارسى، وكانت لهم مكانةٌ ونفوذٌ قويٌ على خراسان قبل عهد المأمون.
وقد كان طاهرٌ واحدٌ من كبار قواد المأمون، لعب هو وابنه عبدالله دوراً خطيراً فى النزاع الذى دب بين الأمين والمأمون فعأونا المأمون معاونة صادقة حتى تم له الانتصار على أخيه، واعترف المأمون لهما بهذا الجميل فقام بتعيين طاهر والياً على الجزيرة ورئيساً لشرطة بغداد، ولم يرض طاهر بهذا التعيين، فقد كان يطمع فى توليه ولاية خراسان، وقد تمكن فى النهاية من تحقيق مسعاه بمساعدة الوزير أحمد بن أبى خالد، حيث اتخذ من نيسابور عاصمة لدولته، ولكنه قام بعد توليه بقطع الخطبة للخليفة العباسى، معلناً استقلاله عن سلطانه فى بغداد، غير أنه مات فجأة فى نفس العام (٢٠٧هـ / ٨٢٢م) وقيل أن المأمون كان وراء هذا الموت المفاجىء، ولكننا نجد أن المأمون يقوم بتعيين طلحة بن طاهر فى مكان أبيه، وتذكر المصادر أنه أقدم على ذلك مدفوعاً بعاملين أولهما أنه ربما أراد أن يقضى على الشكوك التى حامت حول دوره فى موت طاهر المفاجىء، وثانيهما أنه ربما اضطر إلى ذلك لأن بنى طاهر كانوا يتمتعون بنفوذ قوى فى خراسان، فلم يتمكن المأمون من وضع وال آخر من غير الأسرة الطاهرية.

وقد أصبح الحكم وراثياً فى تلك الدولة، إذ أنه بعد وفاة طلحة خَلَفَهُ أخوه عبدالله بموافقة المأمون كذلك، وقد وصلت الأسرة فى عهد عبدالله هذا إلى أوج قوتها ونفوذها، حتى أن الخليفة المعتصم لم يكن راضياً على عبدالله، ولكنه لم يجرؤ على عزله، وإنما لجأ إلى المؤامرات السرية للقضاء عليه، وقد كشف عبدالله سر هذه المؤامرات، فلم يعلن العصيان، ولم يقم بالانفصال التام عن الدولة العباسية، وذلك لأنه شعر أنه ما دام مقيماً فى وطنه بين أهله وذويه، فهو فى مأمنٍ من مؤامرات العباسيين[1].

شكل (٢٢) الدولة الطاهرية

(١) ابن الأثير: الكامل ، ج٧، ص ٧٧-٧٩.

وقد حاول الخليفة العباسى الواثق أن يعين والياً على خراسان بعد وفاة عبدالله من غير الأسرة الطاهرية، ولكنه لم يتمكن من ذلك واضطر إلى الموافقة على تولية طاهر بن عبدالله ثم محمد بن طاهر، الذى كان آخر من تولى الحكم من هذا البيت، إذ خلفه على حكم خراسان يعقوب بن الليث الصفار (فى سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م) مؤسس الدولة الصفارية، وقد كان الطاهريون حكاماً مصلحين اهتموا بأحوال الشعب فى خراسان، وعملوا على إصلاح الزراعة ونشر التعليم، ورفع الظلم عن كاهل الطبقات الدنيا، حتى أنه يؤثر عن عبدالله بن طاهر أنه أوصى عماله بمراعاة الفلاحين ومصالحهم وقال لهم أن الله يطعمنا بأيديهم ويرحمنا بدعائهم ويمنع الإساءة اليهم .

ولم يكن استقلال الدولة الطاهرية عن بغداد استقلالاً تاماً، ولكنه كان استقلالاً ذاتياً، فظلوا يدينون بالولاء للخليفة العباسى، ويخطبون باسمه، ويرسلون إليه الأموال السنوية، وقدموا للعباسيين مساعدات عظيمة لإخماد بعض القوات، فعلى سبيل المثال نجد أنه فى عهد الخليفة المعتصم ثار فى خراسان محمد بن القاسم العلوى، فقام عبدالله بن طاهر بقتاله وأسره وبعث به إلى المعتصم، كذلك فقد ثار فى عهد المعتصم أيضاً المازيار بن قارن فى طبرستان، فقام عبدالله بن طاهر كذلك بتقديم المعونة لجند الخليفة لإخماد ثورتهم، وقد قدر العباسيون للطاهريين ذلك، فعاونوهم فى نزاعهم ضد الصفاريين، كما أبقوا شرطة بغداد فى أيديهم إلى سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م.

الدولة الصفارية : (٢٥٤-٢٩٠هـ / ٨٦٧-٩٠٣م):

انتشر مذهب الخوارج فى ولاية سجستان، وكانت تحت حكم الدولة الطاهرية، واشتد بأسهم إلى الدرجة التى عجز معها الطاهريون عن إخضاعهم، فكونت فرق من المتطوعة على رأسهم صالح بن أنضر الكنانى السجستانى لقتال هؤلاء الخوارج، وكان من بين قادته يعقوب بن الليث الصفار الذى قام بتأسيس الأسرة الصفارية، وقد عرف يعقوب باسم الصفار لأنه بدأ حياته صانعاً للصفر أى النحاس بأجر متواضع قدره ١٥ درهماً فى الشهر.

شكل (٢٣) ولاية سجستان

ولما توفى صالح بن النضر تولى قيادة المتطوعة درهم بن الحسين وظل يعقوب إلى جانبه يعاونه فى حروبه ضد الخوارج، وقد ازداد نفوذ هؤلاء المتطوعة فى سجستان حتى اضطروا إليها أن يتخلى عن منصبه فتولاهم درهم ابن الحسين، ولما كانت شخصية يعقوب أقوى من درهم فقد أعجب به الجند واختاروه زعيماً لهم، ولم يبد درهم أى معارضة بل انسحب تاركاً الأمر ليعقوب الذى أصبح زعيماً للجند ووالياً لسجستان، وقد تمكن من الخوارج ونشر السلام والأمن فى ربوع البلاد، كما نجح فى أن يمد نفوذه إلى ما يجاوره من الأقاليم، ثم بعث إلى الخليفة العباسى بهدية، وعمل على تحسين علاقته بالدولة العباسية حتى يتمكن من توطيد أركان دولته.

ثم ازدادت مطامع يعقوب فبدأ يفكر فى ضم فارس اليه، فبعث إلى الخليفة العباسى يطلب منه أن يعهد بولايتها اليه، وفى تلك الفترة طلب على بن الحسين أحد عمال بنى طاهر من الخليفة أن يوليه على كرمان، وفكر الخليفة أن يضرب الرجلان كل منهما الآخر فأصدر أمره بتولى كل منهما على كرمان، وتمكن يعقوب بن الليث من الحاق الهزيمة بعدوه وأسره ودخل شيراز وصلى بها الجمعة ودعى للخليفة العباسى المعتز فى عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩م. واصل يعقوب العمل على توسيع رقعة ملكه، ثم شجعه ضعف حكام خراسان من الطاهريين على التفكير فى التقدم لفتحها مدعياً أن محمداً بن طاهر قد أوى أحد أتباعه الهاربين، وتمكن يعقوب بالفعل من دخول نيسابور عاصمة الدولة الطاهرية، عام ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م فى عهد الخليفة العباسى المعتمد.

وقام بأسر محمد بن طاهر وبهذا سقطت الدولة الطاهرية، وأصبح يعقوب يحكم خراسان وسجستان وكرمان وفارس[١].

وبعث يعقوب إلى الخليفة العباسى يطلب منه اصدار تقليد بالولاء لحكم هذه المناطق، ولم يوافق الخليفة على هذا الطلب، بل أمره بالانصراف عن خراسان والعودة إلى ولايته، ولكن يعقوب تحدى أوامر الخليفة ولم يذعن لأوامره بل وتقدم بجيوشه إلى طبرستان بغية توسيع ممتلكاته، واشتبك واليها الحسن بن يزيد فى عدد من المواقع، وانتصر عليه، وإن كان لم يتمكن من إتمام فتح هذا الإقليم بسبب الظروف الجوية ووعرة الطريق هناك.

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج٣، ص٢١٠-٢١١.

وفى سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٣م أعلن الخليفة العباسى المعتمد أن يعقوب مغتصب وخارج عن طاعة الخلافة، فأعلن يعقوب الثورة وتحدى الخليفة وتقدم بجيوشه نحو الأهواز، وأدت تلك الأحداث إلى اضطراب الخليفة فأعلن موافقته على تولية يعقوب على خراسان وطبرستان وكرمان والرى وفاس وشرطة بغداد، ولم يقنع يعقوب بهذا بل استمر فى ثورته على الخليفة وأعلن أنه سيستمر فى تقدمه نحو العراق.

إزاء هذا لم يجد الخليفة بداً من الخروج بنفسه للقتال، وصحب معه أخاه محمد الموفق كقائد للجيش، وعندما التقى الطرفان ورأى جنود يعقوب المعتمد، تركوا صاحبهم وانضموا إليه فدارت الهزيمة على يعقوب فى سنة ٢٦٢هـ / ٨٥٧م، وارتد إلى نيسابور، وتوفى يعقوب بعد سنة ٢٦٢هـ / ٨٥٧م تاركاً الأمر لأخيه عمر بن الليث.

شكل (٢٤) قتال الخليفة المعتمد ليعقوب بن الليث

من هذا نرى أن يعقوب كان يحرص على أن تكون علاقته بالخلافة العباسية علاقة طيبة، ثم ساءت تلك العلاقة فى أواخر عهده إلى حد بعيد، وتذكر المصادر أن الخليفة العباسى بعث إلى يعقوب بعد أن ألحق به الهزيمة برسول يسترضيه ويقلده حكم فارس وأعمالها فلما أبلغه رسالة الخليفة، أمر يعقوب بإحضار سيف ورغيف وبصل، ثم أمر باستدعاء الرسول، فلما حضر جلس له وقال: قل للخليفة أنى عليل فإن مت فقد استرحت منك واسترحت منى، وإن عوفيت فليس بينى وبينك إلا هذا السيف حتى اخذ بثأرى أو تكسر بى فتفقرنى، فأعود إلى هذا الخبز والبصل، وعاد الرسول وأبلغ هذا القول إلى المعتمد، ولكن القدر لم يمهل يعقوب إذ توفى بعد ذلك بقليل وخلفه كما ذكرنا أخاه عمرو بن الليث[1].

عمل عمرو بن الليث على تحسين علاقاته بالخليفة قاصد الأخير تقليداً بتوليته على خراسان وفارس وسجستان وكرمان والسند، وتعيينه حاكماً عسكرياً لبغداد وسامراء.

ثم ساءت العلاقات بينه وبين الخليفة، فقد أبدى الموفق ولى العهد رغبته فى استرداد فارس ورفض هذا الطلب، فجمع الخليفة المعتمد فى سنة ٢٧١هـ/٨٨٥م حجاج خراسان، وقرأ عليهم كتاباً يعزل عمرو من ولايته، كما أصدر أوامره بلعنه على المنابر، وتقدم الموفق بعد ذلك بسنتين بجيوشه لقتال عمرو، وتمكن من هزيمته وفتح فارس، وإن كان قد عاد ووافق على توليته على كل ولاياته فى سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٩م، ولما ولى المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م اعترف بولاية عمرو وبعث إليه بتقليدٍ يفيد هذا .اتجه نظر عمرو بعد ذلك إلى فتح إقليم ما وراء النهر، وكان يحكم هذا الإقليم فى ذلك الوقت السامانيون، وكانوا على درجة كبيرة من القوة، وأرسل عمرو إلى الخليفة يطلب منه أن يساعده على تملك هذا الإقليم، وهنا حانت الفرصة التى كانت الخلافة فى انتظارها كى تضرب الصفاريين بالسامانيين فأسرع الخليفة بالموافقة، وأصدر كتاباً بعزل إسماعيل بن أحمد السامانى عن بالسامانيين فأسرع الخليفة بالموافقة، وأصدر كتاباً بعزل إسماعيل بن أحمد السامانى عن بلاد ما وراء النهر، وتولية عمرو بن الليث مكانه، ثم بعث إلى عمرو فى نيسابور برسول يحمل إليه الهدايا ومعها التقليد بتوليته، فلما وضع التقليد فى يد عمرو سأل: ما هذا ؟ فقال الرسول: هذا ما سألته. فقال عمرو : وماذا أصنع به؟ فإن إسماعيل بن أحمد لا يسلم إلى ذلك إلا

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج٣، ص٢١٠-٢١١.

مائة ألف سيف فقال الرسول : أنت سألته، فسر الآن لتتولى العمل فى ناحيته[1].
وخرج عمرو بجيشه فى سنة ٢٨٧هـ / ٩٠٠م ليحقق هدفه فى الإستيلاء على بلاد ما وراء النهر، ولكنه هزم هزيمة شنعاء ووقع أسيراً فى يد أعدائه الذين أرسلوه إلى بغداد حيث قتل هناك.
من هذا نرى أن الصفاريين كانوا يتأرجحون فى علاقتهم بالخلافة بين الثورة والولاء وإن كانوا فى الحقيقة يمثلون النزعة الفارسية الاستقلالية فيعقوب بن الليث كان أول وال ذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة، وكان أول والٍ نقش اسمه على السَّكَّة، كذلك لم تواظب الدولة الصفارية على دفع الأموال السنوية للخلافة، وبهذه المظاهر الثلاث كانوا أول من عمل على الحد من سلطان الخلافة فى بلاد فارس.

شكل (٢٥) سك العملة في عهد عمرو بن الليث

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٢٨٨، ٢٩٠-٢٩٢، ٣٢٥-٣٢٦.

شكل (٢٦) الدولة الصفارية

الدولة السامانية : (٢٦١ – ٢٨٩هـ / ٨٧٤ – ٩٩٩م):

تَنْتَسِبُ الدولة السامانية إلى (سامان)، الذى رُوى أنه ينحدر من نسل الساسانيين، وأن نسبه يرجع إلى الملك الساسانى بهرام جور أو بهرام الخامس الذى توفى سنة ٤٣٩م، وهم من عائلة نبيلة فى بلخ [١]، وقد أسس سامان إحدى القرى فى منطقة بلخ فسميت باسمه [٢]، وقد اعتنق جدهم سامان الإسلام حوالى سنة ١٢١هـ فى خلافة هشام بن عبدالملك على يد الوالى الأموى أسد بن عبدالله وسمى ابن أسد [٣].

ويبدو أن أسداً لم تكن عنده مواهب ذات أهمية، مما جعل المؤرخون لا يُدَوِّنون عنه شيئاً، اللهم إلا ما كان مرتبطا باسم أبيه أو أحد أبنائه [٤].

وقد سَطَعَ نجم أبناء أسد فى خلافة المأمون، فعرف منزلتهم وأمر غسان ابن عباد (٨١٩-٨٢١م) - واليه على خراسان - أن يُعَيِّن هؤلاء الأبناء فى وظائفٍ رفيعةَ المستوى تقديرا لجهودهم، فَعَيَّنَ نوحاً على سرقند، وأحمد حاكماً لفراغانة، ويحيى حاكماً على الشاشى وأشروسنة، وإلياس حاكماً على هرات[٥].

وكان هؤلاء قد نالوا السلطة فى مناطق ضمها حكم الطاهريين، فلما ولى طاهر ابن الحسين بلاد خراسان أقرهم فى هذه الأعمال[٦]، وعندما تُوفى إلياس سنة ٢٤٢هـ / ٨٥٦م فَقَدَ السامانيون هرات، ولكنهم حافظوا على سلطانهم فى ما وراء النهر[٧].

وقد عاش أحمد أكثر الأخوان عمراً، رغم أنه أحدثهم سناً، فبعد وفاة أخيه نوحاً سنة ٢٢٧هـ / ٨٤٢م صار إليه حُكْم سرقند، كما امتد سلطانهم فشمل الشاش وأشروسنة بعد وفاة أخيه يحى سنة ٢٤١هـ / ٨٥٥م، وأصبح أحمد بذلك حاكماً

---

(١) حتى: تاريخ العرب (مطول): ص٤٦٢.

(٢) عبدالعزيز الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة: ص١٢٠.

(٣) النرشخى: تاريخ بخارى، ص٨٦.

(٤) كان أبناء أسد: إلياس ونوح ويحى وأحمد. (أحمد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية: ج٨، ص٧١.

(٥) بركلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية: ج٢، ص١١٣.

(٦) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام: ج٣، ص٧٣؛ أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى: ج٨، ص٧١.

(٧) الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة: ص١٢١.

على المناطق التى كانت تحت حكم إخوته فى ظل الطاهريين[1].
وعندما سقط الطاهريون على يد الصفاريين سنة ٢٥٩هـ / ٧٧٢م بقى أحمد فى حكمه خاضعاً للصفاريين، الذين كانوا مشغولين بالصراع مع الخلافة العباسية، وعندما توفى أحمد سنة ٢٦١هـ / ٩٦٤م أصبح ابنه نصرٌ رئيساً للأسرة السامانية، واتخذ سمرقند مركزاً له، وفى سنة ٨٧٤م

شكل (٢٧) الدولة السامانية

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ج٧، ص٢٧٩ وما بعدها.

ضم السامانيون بخارى حيث اصطحب إسماعيل وأسند إليه حُكمَها بالنيابةِ عنه، وفى سنة ٨٧٥هـ حصل نصرٌ على عهدٍ من الخليفة المعتمد العباسى بولاية ما وراء النهر بكاملها [١].

واستطاع إسماعيل أن يقضى على عصاباتِ اللصوص التى كانت تتألف من الفلاحين المتذمرين، كما عمل على استرضاء النبلاء دون أن يعتمد عليهم، فلما قوى مركزه تسرب الشك إلى نفس أخيه نصر من تصرفاته، وسرعان ما شب النزاع بين الأخويين (إسماعيل ونصر)، واشتبكا فى حربٍ كان النصر فيها لإسماعيل، ووقع فيها نصرٌ أسيراً فى يد أخيه سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨م، فعامله بكل احترام، وصفح عنه وآثر أن يعطيه السلطة[٢]، وخاطبه كرئيس، ثم رجع إلى سمرقند وظل يحكمها كرئيسٍ للأسرة السامانية، وعمل إسماعيل تحت سلطة أخيه حتى مات نصرٌ سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٤م.

ولما توفى نصرٌ آلت زعامة السامانيين إلى أخيه إسماعيل - الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة السامانية - ففى عهده تحولت الإمارة السامانية إلى مملكة، وأصبحت بخارى عاصمة المملكة، ولذلك يقول عنه النرشخى[٣]: «إنه أول السلاطين السامانيين».

وقد عمل إسماعيلُ على تدعيم نفوذ الدولة السامانية وتوسيعها، فقام بعدة أعمالٍ منها :

١- قام إسماعيل بحملةٍ عسكريةٍ كبيرةٍ ضد جيرانه المسيحيين (ناروز) الذين كانوا يهاجمون المناطق الإسلامية بين الحين والآخر، وحقق انتصاراً عليهم، ونتج عن ذلك أن اعتنق الإسلام كبار قادة هذه البلاد [٤]، واقتدت بهم الجماهير، وحُوِّلَت الكنيسة الكبرى إلى مسجدٍ، وأُعلنت الخطبة باسم الخليفة العباسى[٥].

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ج٧، ص٢٨.

(٢) النرشخى: تاريخ بخارى: ص١١٥.

(٣) تاريخ بخارى: ص١١٥-١٧٦.

(٤) أحمد شلبى: الموسوعة التاريخ الإسلامى: ج٨، ص٧٣.

(٥) النرشخى: تاريخ بخارى: ص١١٧.

٢- قام إسماعيلُ بمحاربة محمد بن زيد العلوى الذى كانت له السلطة فى طبرستان، وانتصر عليه وضم طبرستان إلى الدولة السامانية.

٣- قام إسماعيل بحروبٍ عظيمةٍ ضد عمرو بن الليث الصفارى، الذى خلف أخاه يعقوب، واستطاع إسماعيل أن ينتصر على عمرو، وأرسله أسيرا إلى بغداد، حيث قتله الخليفة [١]، وقد كافأ الخليفة العباسى إسماعيل على أعماله، فَعَيَّنَه حاكماً على خراسان بالإضافة إلى ما كان تحت حكمه، وكذلك بالإضافة إلى تركستان وجرجان وبعض المناطق الهندية، وأصبح مُلْك السامانيين يشمل ما وراء النهر وخراسان وجران وسجستان وطبرستان وكرمان والرَّي، فبلغت الدولة بذلك قمة اتساعها، وحافظ السامانيون على العلاقة الحسنة مع الخلافة العباسية، ويقول النرشخي عن إسماعيل السامانى: «إنه يُظهر الطاعة دائماً للخلفاء، ويرى متابعتهم واجبة لازمةً»[٢].

ومما قام به إسماعيل يُظهر أن عهده يُعتبر أفضل العهود السامانية، مما دعا إلى اعتباره المؤسس الحقيقى للدولة السامانية.

وقد وصفه ابن الأثير[٣]: أنه «كان عاقلًا عادلًا حَسَنَ السيرة فى رعيته حليماً...»[٤]

ولم يظهر بَعْدَ إسماعيلَ أميرٌ قديرٌ من السامانيون، ولكن حُسْن إدارتهم واستقرار حكمهم فى بلاد ما وراء النهر مَكّنَهُم من المحافظة على ملكهم مائة سنة، فأقر الخليفة المكتفى أبانصر أحمد بن إسماعيل على ولاية أبيه [٥] أحمد بن إسماعيل سنة ٢٩٥هـ وخلع عليه، وقد تم على يديه زوال الدولة الصفارية، فأسر غلامه سيمجور سبك البكرى غلام عمرو بن الليث الصفارى، كما أسر الليث بن على الصفاري، وفى هذه السنة (٢٩٥هـ) تَمَكَّن السامانيون من الاستيلاء على سجستان، من المعدل ابن على بن الليث الصفاري، وأسر أخاه محمد بن الليث، وبعث بسبك ومحمد إلى بغداد[٦].

---

(١) حتى: تاريخ العرب: ص٤٦٢؛ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية: ص٨٢.

(٢) النرشخى: تاريخ بخارى: ص١٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ج٧، ص١٠٠.

(٤) المصدر نفسه: ج٨، ص٢-٣.

(٥) انظر الطبرى: ج٨، ص٢٤٩.

(٦) الطبرى: ج١٢، ص١٩.

لم تطل ولاية أحمد بن إسماعيل، فقد هجم عليه بعض غلمانه وقتلوه سنة ٣٠١هـ، فحُمِلَ إلى بخارى، ودُفِنَ بها، ولُقِّبَ بالشهيد(١).

فخلفه ابنه نصر الثانى - وكان فى الثامنة من عمره - فاستصغر الناس عمره واستضعفوه، واعتقدوا أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه إسحق بن أحمد بن أسد صاحب سمرقند الذى استمال أهالى بلاد ما وراء النهر إليه وإلى أولاده، وتنافس أمراء البيت السامانى على السُلْطَة فبعث الحق بعض أمراء البيت السامانى إلى الخليفة العباسى المقتدر يسأله كل منهم إمرة ناحية من نواحى خراسان، ولكن الخليفة وافق على أن يلى نصر بلاد أبيه، ووافق على اللقب الذى تَلَقَّبَ به وهو السعيد، وضبط بلاده أبوعبدالله محمد بن أحمد الجيهانى(٢).

على أن ذلك لم يمنع بعض أفراد البيت السامانى من الخروج على نصر ومحاربته طمعا فى بسط سلطانهم على بعض نواحى دولته، فأوقعت جيوشه بهم الهزيمة(٣).

وكان دعاة الإسماعيلية فى فارس وشرق الدولة الإسلامية يبذلون جهوداً كبيرةً لاستمالة كبار الأمراء إلى زعيمهم عبيدالله المهدى، ومن هؤلاء الدعاة أبوعبدالله بأن أحمد النسفى الذى تمكن من أن يضمَّ إلى الإسماعيلية كثيرٌ من أهالى خراسان، ولم يكتفوا بما حققوه من نجاح فى هذا الإقليم، بل اجتازوا نهر جيحون واتجه إلى بخارى، حيث لقى مساعدةً من بعض كبار رجال الدولة السامانية، وبفضل هؤلاء استطاع النسفى الوصول إلى نصر بن أحمد السامانى الذى رَحَّبَ بمبادئه وَدَعَاه لمقابلته.

وكان نصر بن أحمد من أكبر المعارضين للمذهب الإسماعيلى، فقبض على أشقاء النسفى الحسين بن على المروزى وسجنه وظل فى سجنه حتى توفى(٤)، لكن النسفى استطاع بحُسن سياسته ودهائه أن يستميل نصر بن أحمد إلى جانب الخليفة الفاطمى عبيدالله المهدى، فطلب منه دية استاذه فأجاب الأمير نصر طلبة، وأرسل النسفى الدية إلى عبيدالله المهدى ليبرهن له على إخلاصِ نصرٍ للدعوة الإسماعيلية(٥)، ويدل على ميل نصر بن أحمد السامانى إلى الدعوة

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ج٨، ص٢٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ج٨، ص٢٨؛ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام: ج٣، ص٧٥.

(٣) المصدر نفسه: ج٨، ص٤١.

(٤) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية: ص٨٣.

(٥) ابن النديم: الفهرست، ص٢٦٦.

الإسماعيلية الكتاب الذى أرسله إلى عبيدالله المهدى يعترف بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال، وقد قال فى كتابه: «أنا فى خمسين ألف مملوك يطيعوننى وليس على المهدى بهم كلفة ولا مؤنة، فإن أمرنى بالمسير سرت إليه، ووصف بسيفى ومنطقتى بين يديه وامتثلت أمره»[١].

ازداد نفوذ الأدعى أبى عبيدالله محمد بن أحمد النسفى فى عهد نصر السامانى، حتى أصبح صاحب الأمر والنهى فى دولته، فاستغل هذا المركز لمضاعفة جهوده فى نشر الإسماعيلية، مما أثار عليه حفيظة كبار الدولة السامانية من السُّنِّيين، وبخاصة بعض القواد والعلماء الذين أخذوا يكيدون له ولأنصار المذهب الإسماعيلي، ولما أدرك نصرٌ الخطر المحدق به من قواده السنيين نزل عن الإمارة لابنه نوح، الذى وَجَّهَ اهتمامه إلى القضاء على الدعوة الإسماعيلية وأنصارها فى بلاده، فدعا الفقهاء لمناظرة النسفى، فلما تغلبوا عليه بحججهم، أُمِرَ بقتله، وقَتْلُ الكثير من القواد الذين دخلوا فى المذهب الإسماعيلى سنة ٣٣١هـ.

نوحٌ بن نصر ٣٣١-٣٤٣هـ:

تولى نوحٌ بن نصر بلاد خرسان وما وراء النهر سنة ٣٣١هـ، وبدأ حكمه بالعفو عن بعض الأمراء الذين كان يحقد عليهم فى حياة أبيه ليأمن خروجهم عليه، وليتألف قلوبهم، وَوَلَّاهُم بعض الولايات، وفى أيام نوح بدأ الصراع بين السامانيين والبويهيين، ومنذ منتصف القرن الرابع الهجرى أخذت بوادر الانحلال تظهر فى الدولة السامانية بسبب وقوع النزاع بين أفراد البيت السامانى، وضَعْفُ الأمراء السامانين وخروج القواد والعمال عليهم، وتَطَلُّع البويهيين إلى امتلاك بلادهم.

وعَمِلَ نوحٌ بن نصر على استرداد الرَّي من يد ركن الدولة بن بويه، وانتهى بهزيمة جيوش نوح بسبب انضمام جنده إلى البويهيين، غير أن نوحاً أَعَدَّ قوة جديدة لمحاربة ركن الدولة، واستطاع فى سنة ٣٣٣هـ الاستيلاء على الرَّي وعلى بلاد الجبل[٢].

وقد خرج نوحٌ بن محتاج الذى أخلص له ولأبيه من قبل[٣]، إلا إن الجند راسلوا إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل عم نوح بن نصر، وكان قد انضم إلى ناصر الدولة بن حمدان، وطالبوه بالحضور لمبايعته فأجابهم إلى طلبهم، وقد قامت الحرب بين

(١) محمد جمال سرور: تاريخ الحضارة، ص٨٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ: ج٨، ص١٥٨-١٥٩.

(٣) ابن الأثير: ج٨، ص١٦٤.

نوحٍ من جهة وبين أبى على وإبراهيم بن أحمد من جهةٍ أخرى، وتمكن إبراهيم أن يستولى على مرود بنيابور وبخارى فى سنة ٣٣٥هـ وخطب فيها إبراهيم بن أحمد، إلا أن الخلاف ما لَبِثَ أن وقع بين إبراهيم وبين أبي علي، فَمَال إبراهيم إلى نوح، ووقعت حربٌ بين أبى على ونوح بن نصر سنة ٣٣٧هـ، وانتهت بعقد الصلح بينهما[١].

شكل (٢٨) نوح بن نصر

(١) ابن الأثير: ج٨، ص١٦٤-١٦٧.

واستطاع نوحٌ بن نصر أن يسترد بلاد الرَّي والجبل من ركن الدولة بن بويه، الذى كان له أثرٌ كبيرٌ فى إثارة أبى على سنة ٣٣٩هـ [١] وقد أَسنَد نوحٌ قيادة جيوش خراسان إلى أبى على الذى تمكن بمساعدة شمكير ابن زيار أن يُرغمَ ركن الدولة بن بويه على أن يدفعَ إلى نصرٍ جزيةً سنويةً مقدارها مائتا ألف دينار، إلا أن نوحاً عزل أبا علي مما جعله ينضم إلى ركن الدولة، ثم تدخل لدى الخليفة العباسى فأقره على ولاية خرسان بمساعدة معزالدولة البويهي سنة ٣٤٣هـ، وهى السنة التى توفى فيها الأمير نوح بن نصر[٢].

تولى الحُكْم بعد نوح ابنه عبدالملك بن نوح سنة ٣٤٣هـ، فَوَلَّى قيادة جيوش خراسان بكر بن مالك، وأرسله من بخارى لإخراج أبى على بن محتاج، فهرب ولجأ إلى ركن الدولة فى السرى حيث أكرمه [٣].

غير أن حُكم عبدالملك لم يَطُلْ، إذ توفى إثر كبوة فرسه سنة ٣٥٠هـ، فآلت إمارة السامانيين إلى أخيه منصور بن نوح، وفى عهده حدثت فتناً فى خراسان، مما أدى إلى تسرب الضعف إلى الدولة السامانية[٤].

وفى عهد المنصور تمرد أهل سجستان على أميرهم خلف بن أحمد، وعَيَّنُوا مكانه طاهر بن الحسن، الذى لم يلبث أن طرده خلف بمساعدة منصور بن نوح، غير أن خلف بن أحمد تمرد على الأمير السامانى منصور ووقعت بينهما حرباً استمرت سبع سنوات، انتهت بعقد صلح بينهما وإعادة الخطبة لمنصور بن نوح، وفى ذلك يقول ابن الأثير[٥]: «وكان هذا أول وهنٍ دخل الدولة السامانية، فطمع أصحاب الأطراف لسوء طاعة أصحابهم لهم».

وتطلع البويهيون إلى امتلاك بلاد السامانيين، فقامت الحرب سنة ٣٥٦هـ بين منصور بن نوح وبين ركن الدولة بن بويه فى جهات السرى [٦]، وظل العداء بين السامانيين والبويهيون قائماً حتى سنة ٣٦١هـ، حيث تم الصلح بين الأمير

---

(١) مسكويه: تجارب الامم، ج٢، ص١٠٠- ١٠٤.

(٢) تجارب الأمم: ج٢، ص١٥٤- ١٥٧.

(٣) تجارب الأمم، ج٢، ص١٥٧.

(٤) تجارب الأمم: ج٢، ص١٨٩.

(٥) ابن الأثير: ج٨، ص٢٠٢.

(٦) ابن الأثير: ج٨، ص١٩٠-١٩١.

منصور وركن الدولة وابنه عضد الدولة، وتزوج نوحٌ ابنة عضد الدولة، وحمل إليه الهدايا، وكَتَبَ وشَهِدَ عليه أعيان خراسان وفارس والعراق[١].

وبعد وفاة منصورٍ بن نوح سنة ٣٦٦هـ تولى ابنه نوحاً الثانى الحُكْم، وكان عمره ثلاثة عشر سنة، فقام بأمر الدولة السامانية فى بداية حكمه وزيره الحسن العينى ، غير أن قائد جيش خراسان من قِبَل السامانيين استبد بالأمر، فنزل الوزير العتبى وولى أباالعباس «تاس» إمرة الجيش ، وقامت الحرب بين السامانيين والبويهيين[٢]، كما قامت ثورة على يد أحد أمراء البيت السامانى ضد نوح الثانى، بعد أن حلت الهزيمة بجيوشه[٣].

شكل (٢٩) الحرب بين السامانيين والبويهيين

(١) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة: ج٤، ص٦٢؛ ابن الأثير: ج٨، ص٢٢٥.

(٢) ابن الأثير: ج٩، ص٤-٥.

(٣) ابن الأثير: ج٩، ص١٠-١١.

وفى عهد نوح بن منصور تعرضت الدولة السامانية للزوال، ففى سنة ٣٨٣هـ ثار اثنان من قواد السامانيين هما أبوالحسن بن سيمجور وقائد الخاصة غلام نوح بن نصر، واتصلا بشهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركى، فاستطاع (إيلك) هزيمة جيوش نوح بن منصور واحتل بخارى، إلا أن نوحاً تمكن من استردادها إثر موت بغراخان وثورة أهالى بخارى عليه(١)، ونتيجة لتعرض السامانيين لثورة القواد، فقد استعان نوح بن منصور سنة ٣٨٤هـ بسبكتكين صاحب غزنة للوقوف فى وجه الثوار، فانتصر على جيوش الثوار قرب هراة، واستعاد نوح نيسابور وعَيَّنَ عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين ولَقَّبَهُ سيف الدولة، وعاد نوحٌ إلى بخارى، وعاد سبكتكين إلى هراة، وأقام محمود بنيسابور(٢)، غير أن الثوار لم يلبثوا أن انتصروا على محمود بن سبكتكين.

دام حُكم نوح بن منصور ما يزيد على إحدى وعشرين سنة (٣٦٦ - ٣٨٧هـ) وكان حكمُه مليئاً بالحروب الأهلية والثورات الداخلية، ولعل ذلك يعود لصغر سنه، وتدخل النساء فى الحُكْم وتزايد نفوذ الوزراء، وطمع أمراء الأطراف واستئثارهم بالسلطة، وطمع الأسرة البويهية والأتراك فى أملاك السامانيين، وقيام المنافسة بين أفراد البيت السامانى نفسه(٣).

ولا شك فى أن اعتماد السامانيين على الأتراك فى جيوشهم - وهم من العناصر التى تأكد خطرها على الدولة المعاصرة لهم - كان له أثره فى إضعاف دولته والإسراع بزوالها، حيث أن هؤلاء الأتراك سرعان ما تقلدوا المناصب العالية فى الجيش والإدارة المدنية، وأصبحوا خطراً عليهم سبب السلطات الواسعة التى استأثروا بها(٤).

انهيار الدولة السامانية:

بعد وفاة نوح بن منصور السامانى سنة ٣٨٧هـ تولى الحُكْم ابنه منصور، فأخذ يتألف قلوب من كان حوله بالأعطيات والهبات وخاصة منهم الأنصار والقواد، لكن (إيلك) التركى المعروف ببغرخان اتخذ من موت نوح بن منصور ذريعةً لاحتلال

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص٤٨.

(٢) ابن الأثير: ج٩، ص٤٨.

(٣) حتى: تاريخ العرب: ص ٤٦٣؛ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ج٢، ص١١٨.

(٤) ابن الأثير: ج٩، ص٤٨.

سمرقند، لا سيما إنه كان قد استولى على بخارى سنة ٣٨٣هـ، وساعده فى ذلك قائد الخاصة الذى استولى على بخارى، مدعياً أنه يعمل لخدمة الأمير السامانى منصور[١].

ثم بدأ النزاع بين الأمير منصور ومحمود الغزنوى الذى أثار حقده وغضبه تولية بكتوزون خراسان وطالب بإعادته إليه، ولَمَّا لم يستجب إليه، فقد عمل بكتوزون وقائد الخاصة على القبض على منصور بن نوح وسملا عينه، ثم وليا أخاه عبدالملك الحُكْم.

شكل (٣٠) انهيار الدولة السامانية

(١) ابن الأثير: ج٩، ص٤٨.

اتخذ محمود الغزنوى من اضطراب الأمور فرصةً للاستيلاء على نيسابور وبخارى، واستقر ملكه بخراسان، وأزال نفوذ السامانيين عنها وخطب فيها للخليفة القادربالله، ووقعت بلاد ما وراءالنهر فى يد إيلك ببغراخان الذى قصد بخارى، وتودد إلى عبدالملك بن نوح، لكنه ما لبث أن قَبَضَ على عبدالملك وعلى قواده، وعلى منصور بن نوح، وحَبَسَ أقاربه سنة ٣٩٠هـ، وبذلك انقضت الدولة السامانية.

شكل (٣١) محمود الغزنوي

ويمكن إرجاع عوامل زوال الدولة السامانية إلى ما يلى:

١- وقوع النزاع بين أفراد البيت السامانى.

٢- خروج القواد وعمال الأقاليم على الأمراء السامانيين، وكثرة الثورات الداخلية التى كانت لمطامع الحرس التركى اليد الطولى فيها مثل أبى على بن المحتاج وابن سيمجور.

٣- اعتماد السامانيين على الأتراك فى جيوشهم، وتعاظم نفوذ الحرس التركى الذين تَقَلَّدو المناصب العالية فى الجيش والإدارة المدنية، وصاروا يتلاعبون بالأمراء ويتدخلون بالسياسة، وأسقطوا هيبة الوزارة وهيبتها فاختلت الإدارة واضطربت الأمور المالية، حتى أصبحت الخزينة تشكو من الإفلاس. فعجلوا بخطرهم بزوال الدولة.

٤- تدخل النساء والوزراء فى الحُكْمِ بسبب صغر سن بعض الأمراء مثل نوح الثانى بن منصور بن نوح.

٥- ظهور الدولة الغزنوية على حدودهم وقيام الحرب بينهم وبين السامانيين، وانتصار البويهيين على السامانيين قرب مرو، ثم الاستيلاء على أقاليمهم، مثل خراسان وبلاد ما وراء النهر.

٦- استعانة بعض أمراء البيت السامانى وعمال الأقاليم بالبويهيين ضد الأمراء السامانيين مثل نوح بن نصر، ثم تحقيق انتصارات عليهم مما أضعف الدولة السامانية.

٧- طمع البويهيين بأراضى الدولة السامانية، وكذلك طمع الأتراك بالدولة السامانية والعمل على السيطرة عليها.

وهكذا زالت الدولة السامانية على أيدى الغزنويين وخانات تركستان، وأصبحت كأن لم تكن بالأمس، كدأب الدولة قبلها، إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب»[1].

(١) ابن الأثير: ج٩، ص٥٤-٥٦.

أثر الدولة السامانية فى الحضارة العربية الإسلامية:

وَضَعَ إسماعيل السامانى أُسس الإدارة للدولة السامانية، وسار بموجبه من جاء بعده، وكانت سبباً فيما وصلت إليه الدولة من نجاح، فكان النظام الإدارى السامانى تقليداً لما كان عند الخلفاء العباسيين، فالأمير السامانى كان له النفوذ، وإلى جانبه هيئةٌ تنفيذيةٌ برئاسته، وهناك أمراءٌ للمقاطعات التى بعد الدولة السامانية.

وكان رجال العِلم فى الدولة السامانية يتمتعون بمكانةٍ عاليةٍ ونفوذٍ كبيرٍ، وكانت نصائحهم موضع تقدير الأمراء واهتمامهم، وكانت هناك خزانتان: خزانةٌ للنفقات فى الظروف العادية، وأخرى للطوارئ بحيث لا يُنفَق منها إلا عند الضرورة، وكان ما يؤخذ منها يُعَدُّ دَيْناً يَلزَم إعادته، وبمرور الأيام نالت تلك النظم كثيراً من التغيير إذ اضمحلت سلطة الأمراء.

ثم تسربت السلطة إلى الأتراك، وصار الجيش يتدخل فى السياسة، وفُرضت ضرائبَ جديدة بسبب فراغ الخزائن، مما أثار الشعب ضد الأمير، فاتخذ الشعب جانب الثورة، مما وضع نهايةً للدولة[1].

وكانت خرسان وما وراء النهر قد ازدهرت فى عهد السامانيين، وكانت خراسان تنقسم إلى أربعة أقسام: قسم عاصمته نيسابور، وقسم عاصمته مرو، وثالث عاصمته هراة، ورابع عاصمته بلخ. أما بلاد ما وراء النهر فكانت تنقسم إلى خمسة أقسام: الصفد وعاصمته بخارى وسمرقند، وإلى الغرب من الصغد خوارزم، والقسم الثالث صفانيان، والرابع فرغانة، والخامس الشاش[2].

بلغ نفوذ السامانيين أَوْجُه فى نهاية القرن الثالث الهجرى، فكانت بلاد ما وراء النهر والجبل وإيران خاضعة لنفوذهم، وكان فى داخل دولتهم ولاياتٍ تكاد تكون مستقلةً مثل بلاد سجستان، وهذه البلاد كانت تقيم الخطبة للأمير السامانى فى بخارى، كما كانت تُرسل إليه مبالغَ ماليةً سنويةً نتيجة لاتساع الدولة، فقد اضطر السامانيون إلى إنشاء ما يشبه منصب «نائب ملك» فكانوا يقيمون فى بخارى، ويقيم قائد جيشهم فى نيسابور[3].

---

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامى: ج٨، ص٧٧.

(٢) انظر: محمد جمال سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٨٥.

(٣) آدم متنز: الحضارة الإسلامية، ج١، ص٣٠-٣١.

وكان رجال العِلم فى الدولة السامانية يتمتعون بمكانةٍ عاليةٍ ونفوذٍ كبيرٍ، وكانت نصائحهم موضع تقدير الأمراء واهتمامهم، وكانت هناك خزانتان: خزانة للنفقات فى الظروف العادية، وأخرى للطوارئ بحيث لا يُنفَق منها إلا عند الضرورة، وكان ما يؤخذ منها يُعَدُّ دَيْناً يَلزَم إعادته، وبمرور الأيام نالت تلك النظم كثيراً من التغيير إذ اضمحلت سلطة الأمراء.

ثم تسربت السلطة إلى الأتراك، وصار الجيش يتدخل فى السياسة، وفُرضت ضرائبَ جديدة بسبب فراغ الخزائن، مما أثار الشعب ضد الأمير، فاتخذ الشعب جانب الثورة، مما وضع نهايةً للدولة(١).

وكانت خرسان وما وراء النهر قد ازدهرت فى عهد السامانيين، وكانت خراسان تنقسم إلى أربعة أقسام: قسم عاصمته نيسابور، وقسم عاصمته مرو، وثالث عاصمته هراة، ورابع عاصمته بلخ. أما بلاد ما وراء النهر فكانت تنقسم إلى خمسة أقسام: الصفد وعاصمته بخارى وسمرقند، وإلى الغرب من الصغد خوارزم، والقسم الثالث صفانيان، والرابع فرغانة، والخامس الشاش(٢).

بلغ نفوذ السامانيين أَوْجُه فى نهاية القرن الثالث الهجرى، فكانت بلاد ما وراء النهر والجبل وإيران خاضعة لنفوذهم، وكان فى داخل دولتهم ولاياتٍ تكاد تكون مستقلةً مثل بلاد سجستان، وهذه البلاد كانت تقيم الخطبة للأمير السامانى فى بخارى، كما كانت تُرسل إليه مبالغَ ماليةً سنويةً نتيجة لاتساع الدولة، فقد اضطر السامانيون إلى إنشاء ما يشبه منصب «نائب ملك» فكانوا يقيمون فى بخارى، ويقيم قائد جيشهم فى نيسابور(٣).

وكانت بخارى تحت حُكم السامانيين موطن الجلال والفخر، ومركز الزُّهُوِ والعظمةِ وأُفق الأدب والأدباء، ومكاناً لالتقاء العلماء والقادة وذوى الرأى(٤).

ويصف القزوينى بخارى فى هذا العهد بقوله: «إن بخارى كانت دائماً مَجْمَعُ الفقهاء ومعدن الفضلاء، ومنشأُ علوم النظر وأكثر سكانها من نسل عمر بن عبدالعزيز، وقد توارثوا تربية العِلم والعلماء كابراً عن كابر، ولم تُرَ مدينةً كان أهلها أشدُ احتراماً لأهل العِلم من بخارى.

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامى: ج٨، ص٧٧.

(٢) انظر: محمد جمال سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٨٥.

(٣) آدم متنز: الحضارة الإسلامية، ج١، ص٣٠-٣١.

(٤) أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى، ج٨، ص٧٦.

ولعل ما ساعد على النهضة الفكرية وانتشار الحضارة فى العصر السامانى، وانتشار الأمن والاستقرار فى ربوع هذه الدولة، فى الوقت الذى كان فيه الاضطراب منتشراً فى العراق وسوريا واليمن والحجاز، بسبب ما كان يقوم به القرامطة من أعمال نهب وتخريب، فقد أشبه نفسه بالمأمون، حتى إنه كان يُسَمَّى مأمون السامانى، وهو الذى عاش فى رحابه الثعالبي[1].

وكان للأمراء السامانيين فضلٌ فى تشجيع العلم والأدب، فقد شملت النهضة الفكرية فى عهدهم جوانب علمية وجغرافية وتاريخية وأدبية.

شكل (٣٢) العلماء في عهد الدولة السامانية

وخير مثالٍ على النهضة العلمية فى هذا العهد: أن نذكر أن العالِم ابن سينا عاش فى رحاب السامانيين، حيث عاش فى عصر نوح الثانى، ويقول ابن سينا مقدراً جهود السامانيين وعنايتهم بالمكتبات: « لقد دخلت مكتبة السامانيين فوجدتها مقسمةً إلى حجراتٍ فسيحة فى كل حجرةٍ مجموعةً هائلةً من الكتب من كل فَنٍّ

(١) أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى، ج٨، ص٧٦.

من فنون المعرفة، فهنا حُجْرَةً لكتب الشِعر، وأخرى لكتب القانون، وثالثة لكتب الشريعة وهكذا، وقد قرأت بعض هذه الكتب واستفدت منها استفادةً عظيمةً، وبعض هذه الكتب نادراً لم يُعرف اسمه لدى كثير من الناس»[١].

وفى بلاط السامانيين ازدهر الرجال من عباقرة العلوم والفنون مثل: الشاعرين الكبيرين: الرودكى والدقيقى، اللذين تُنْسَب لهما نشأة الشعر الحماسى، الذى أحيا روح الوطنية الإيرانية[٢]، ومثل أبى على ابن سينا.

شكل (٣٣) العالم ابن سينا

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء، ج٢، ص٤.

(٢) إيران: ماضيها وحاضرها، ص٥٢-٥٣، للمؤلف دونالد ولبر.

وَوَجَدَت العلوم التاريخية والأدبية اهتماماً كبيراً من السامانيين، وفيما يلى بعض الأعلام الذين عاشوا فى هذا العهد:

١- البلعمى: وهو أبوعلى بن أحمد البلعمى: كان وزيراً لعبدالملك الأول وللمنصور الأول السامانيين: وقد ترجم هذا العالِم كتاب الطبرى فى التاريخ إلى اللغة الفارسية[١].

٢- عبدالله محمد بن أحمد الجهيانى: وقد عاش فى عصر نصر الثانى وأَلَّفَ عدة كتب فى فنونٍ مختلفةٍ من بينها كتابه المسالك والممالك.

٣- وهناك عدد من المؤرخين الذين كتبوا تاريخ بخارى - عاصمة الدولة السامانية - منهم: أبوبكر بن جعفر، الذى قَدَّمَ تاريخه بخارى إلى نوح بن نصر، وشمل لمحات عن أهمية بخارى، ومكانتِها وجلالِها وبهائِها، وجميع العلماء الذين عاشوا فيها وفى المناطق المحيطة بها، وقد كتب بأسلوبٍ عربيٍ رائعٍ.

ومنهم أيضا أبوعبدالله الوراق الذى كتب تاريخاً آخر لبخارى، وهو يشمل تاريخ السامانيين أنفسهم، ومنهم كذلك الحاكم بن عبدالله النيسابورى، فقد كتب فى تاريخ العلماء الذين عاشوا فى بيسابور، وكان هؤلاء العلماء من الكثرة بحيث أن الكتاب الذى أَلَّفَه فيهم وصل إلى ثمانية أجزاء.

وللأمراء السامانيين فَضْلٌ كبيرٌ فى تشجيع الأدب، وبخاصة الأدب الفارسى الذى بدأ ينتعش منذ القرن الثالث الهجرى، حتى أن الفُرس أخذوا يؤلفون بلغتهم الفارسية، وقد بدأت الروح الفارسية تظهرُ فى الأدب الفارسى منذ ذلك الوقت، ومن ذلك كتاب الشاهنامة الفردوسى[٢].

وقد عادت اللغة الفارسية للظهور فى العهد السامانى، وصار يظهر منها نثرٌ وشِعْرٌ، وذلك إلى جانب ما كُتِبَ باللغة العربية فى مجال الأدب من شِعْرٍ ونثرٍ، ومن أشهر كتب الأدب فى العصر السامانى يتيمة الدهر للثعالبي.

وكان الأمير منصور الثانى يقف مع أشهر الأدباء فى عصره، وقد كان متحمساً وحاول أن يُضفى على الدولة روح الشباب التى كان يتمتع إليها، إلا أن الهِرَمَ سيطر على الدولة فاتجه إلى الأدب والشِعر يضع فيهما قدراته[٣].

---

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٨٢؛ موسوعة التاريخ الإسلامى، ج٨، ص٧٨.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٨٢.

(٣) أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى، ج٨، ص٧٩.

وفى مجال الطب والفَلَك والفلسفة كان الفُرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلاً من الفارسية، حيث لم يكن لهذه العلومِ علاقةٌ كبيرةٌ بالأدب الفارسى.

وكان من أشهر كتب الطب فى ذلك العصر: الكتاب المنصورى الذى أَلَّفَه أبوبكر الرازى، وأهداه إلى أبى صالح منصور بن إسحق السامانى الذى حَكَمَ سجستان نيابةً عن السامانيين.

ويُذكر أن ابن سينا - الذى كان على علاقةٍ قويةٍ بالسامانيين - رُوِيَ إنه رأى فى مكتبة مدينة بخارى - حاضرة الدولة السامانية - من طرائف الكتب ما لم يَسمع بمثله من قبل[1].

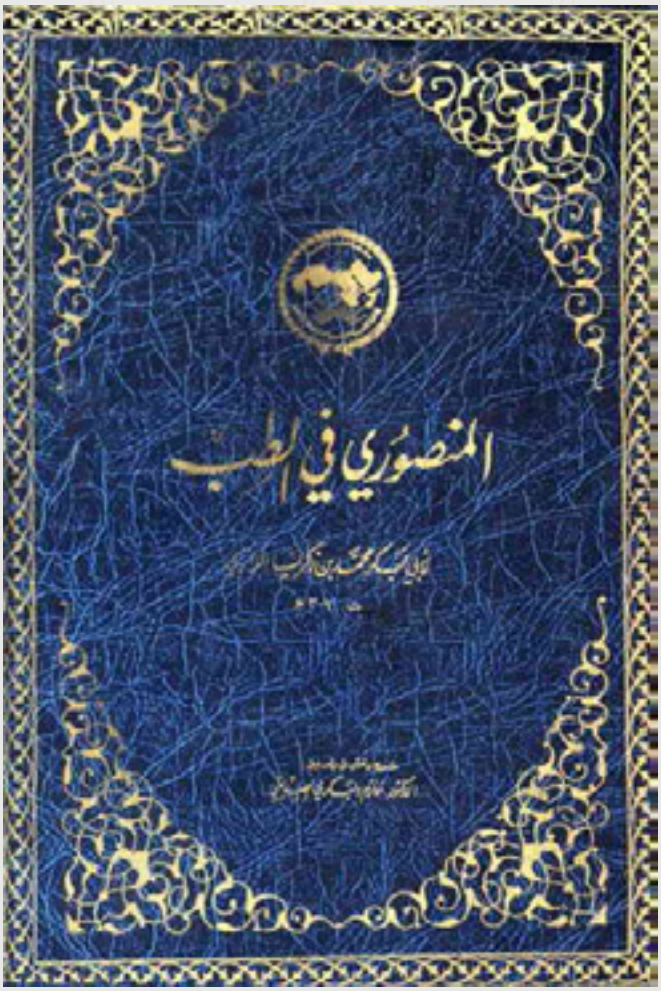

شكل (٣٤) كتاب المنصور في الطب لأبو بكر الرزاي

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء.

وفى مجال الطب والفَلَك والفلسفة كان الفُرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلاً من الفارسية، حيث لم يكن لهذه العلومِ علاقةٌ كبيرةٌ بالأدب الفارسى.

وكان من أشهر كتب الطب فى ذلك العصر: الكتاب المنصورى الذى أَلَّفَه أبوبكر الرازى، وأهداه إلى أبى صالح منصور بن إسحق السامانى الذى حَكَمَ سجستان نيابةً عن السامانيين.

ويُذكر أن ابن سينا - الذى كان على علاقةٍ قويةٍ بالسامانيين - رُوِيَ إنه رأى فى مكتبة مدينة بخارى - حاضرة الدولة السامانية - من طرائف الكتب ما لم يَسمع بمثله من قبل(١).

ومن مظاهر تأثير السامانيين فى الحضارةِ، النهضة الصناعية التى قامت فى عهد السامانيين، فكان يقودُ هذه النهضة رجالٌ من الصين ومن مصر، وكانت الصناعة تشمل مصانعَ للقطن، وأخرى للحرير، وثالثة للمعادن وبخاصة الأسلحة، ومما ساعد على النهضة الصناعية تشجيع الأمراء السامانيين، وتوفر مناجم الفحم التى اشتهرت بها فرغانة.

واشتهرت سمرقند فى العهد السامانى بصناعة الورق، الذى يُعتبرُ أساساً للحضارة، وترتب على تلك النهضة الصناعية إعطاء الطرق اهتماماً زائداً، وذلك لنقل البضائع من مكانٍ إلى آخر، وأهم هذه الطرق التى اهتمت بها الدولة الطريق الواصل بين جورجان شمالاً إلى خراسان جنوبا، والطريق الموصل من البحر الأسود إلى أوربا(٢).

وفى نهاية عهد السامانيين تحولت الدولة إلى ولاياتٍ وإقطاعاتٍ، وصادف هذا التحول ظهور البويهيين والغزنويين فى تلك البقاع، مما حَتَّمَ على السامانيين الخروج من الساحة، وإخلاء الطريق للقوة الجديدة.

هذا إيجازٌ عن الدولة السامانية، التى مَثَّلَت أخطر دولة فى إيران، ولعبت دوراً هاما فى تاريخ هذه البلاد، ووضعت الأساسَ لإعادة اللغة الفارسية إلى الحياة، كما شجعت التشيع حتى صار المذهب الرسمى لإيران.

---

(١) ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء.

(٢) انظر موسوعة التاريخ الإسلامى: ج٨، ص٧٩.

ملوك السامانيين:

١-نصر الأول بن أحمد	٢٦١هـ/٨٧٤م
٢-إسماعيل بن أحمد	٢٧٩هـ/٨٩٢م
٣-أحمد بن إسماعيل	٢٩٥هـ/٩٠٧م
٤-نصر الثانى بن أحمد بن إسماعيل	٣٠١هـ/٩١٣م
٥-نوح الأول بن نصر الثانى	٣٤٣هـ/٩٥٤م
٦-عبدالملك الأول بن نوح	٣٤٣هـ/٩٥٤م
٧-منصور الأول بن نوح	٣٥٠هـ/٩٦١م
٨-نوح الثانى بن منصور	٣٦٦هـ/٩٧٧م
٩-منصور الثانى بن نوح الثانى	٣٨٧هـ/٩٩٧م
١٠-عبدالملك الثانى بن نوح الثانى	٣٩٠هـ/١٠٠٠م

تدريبات الفصل الثالث

حدد صواب أو خطأ العبارة التالية:

(١) ينتمي الطاهريون إلى أصل فارسي:

- ○ صواب
- ○ خطأ

(٢) يعقوب بن الليث هو من قام بتأسيس الأسرة الصفارية:

- ○ صواب
- ○ خطأ

اختر الإجابة الصحيحة مما يلي:

(٣) تولى بلاد خرسان وما وراء النهر سنة ٣٣١ هـ :

- ○ عبد الملك بن نوح
- ○ نوح بن نصر
- ○ منصور بن نوح

(٤) وضع أسس الإدارة للدولة السامانية:

- ○ إسماعيل الساماني
- ○ منصور الثاني
- ○ نوح بن منصور

الفصل الرابع

الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية

الفصل الرابع
الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية

الأهداف:

عزيزي الطالب .. بعد الإنتهاء من دراسة هذا الفصل ينبغي عليك أن تكون قادرًا على أن:

(١)توضح أسباب قيام الدولة الغزنوية.
(٢) تتعرف على أسباب صحوة الخلافة العباسية.
(٣)تتعرف على عصر نفوذ البويهين.
(٤) تتعرف على جهود السلاطين العظام للنهوض بالدولة السلجوقية.
(٥) تشرح أسباب إنهيار الدولة السلجوقية.

الدولة الغزنوية: (٣٥١-٥٨٢هـ / ٩٦٢- ١١٣٦م)

اتساعها:

يرجع قيام الأسرة الغزنوية إلى نشاطِ بعض القادة الأتراك فى بلاط الأمراء السامانيين، إذ كان لهم سلطانٌ واسعٌ فى الجيش السامانى، وهم الذين دَبَّروا مقتل أحمد بن إسماعيل، وسيطروا على نوحٍ الثانى[١].

وتَعُود علاقة الأتراك بإيران إلى عهد الدولة الإخمينية، إذ كانت توكل إلى الأتراك الذين يهاجرون إلى إيران من أجل العمل بالحراسة، والاشتراك فى الجيوش لكفاءتهم الحميمة، وكان الخليفة العباسى قد اعتمد عليهم فى هذا المجال بعد توليه الخلافة.

ولم يقنع الأتراك منذ بداية الدولة الغزنوية بما قنعوا به فى الخلافة العباسية من نفوذ، بل اتجهوا لتكوين الدول والممالك فى العالَم الإسلامى[٢].

---

(١) عبدالكريم غرايبة: العرب والترك، ص٢٧.

(٢) أحمد شلبى: تاريخ الحضارة الإسلامية: ج٨، ص٨٦.

شكل (٣٥) الدولة الغزنوية

وكان (ألبتكين) من الموالى الأتراك الذين كانت لهم منزلةً كبيرةً عند السامانيين، فكان يقود جيش نوح الأول السامانى (٣٣١-٣٤٣هـ)، ثم عَيَّنَه عبدالملك بن نوح (٣٤٣-٣٥٠هـ) حاجباً فى بلاطه، ثم عَيَّنَه في عام ٣٤٤هـ عاملاً على هراة فى خراسان، وأوصاه أن يكون الحُكم من بعده لابنه، غير أن ألبتكين عجز - بعد وفاة عبدالملك وتولى منصور بن نوح الأمر – عن تنفيذ وصية أخيه، ثم إنه أُقصِىَ من منصبه، فلجأ إلى مدينة غزنة التى كان أبوه عاملاً عليها من قِبَل السامانيين، وتبعه بعض رفاقه والساخطون على المنصور، وبعد وفاةِ أبيه سنة ٣٥٢هـ تولى مكانه، وعجز المنصور فى القضاء على ألبتكين، فعَظُمَ شأنه[١].

وبعد وفاة ألبكتين آلت السلطة إلى ابنه إسحق الذى حَكَمَ سنةً واحدةً دون أن يتمكن من توسيع حدود بلاده، وخلفه بعض الأتراك الذين ليس لهم ذِكْرٌ فى التاريخ مثل: (بلكانين- مملوك الحق)، و(بيرى) أحد أهالى المدينة، والذين سرعان ما أخلصوا إلى سبكتكين - أحد موالى ألبتكين وزوج ابنته - الذى يُعتبر المؤسس الحقيق للأسرة الغزنوية.

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٨٥.

شكل (٣٦) تمثال رمزي لألب تكين

ويَذْكر ابن الأثير[1]: أن إسحق ألبتكين لما توفى «ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للحُكم، اجتمع عسكره ونظروا فيمن يلى أمرهم، ويُجمع كلمتهم، فاختلفوا ثم اتفقوا على سبكتكين لِمَا عَرِفُوه من عقله ودينه ومروءته وكمال الخير فيه، فقدموه عليهم وولوه أمورهم وحلفوا له وأطاعوه، فأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسةً خسة».

شكل (٣٧) سبكتكين

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج٨، ص٢٤٧.

ويقال أن سبكتكين ينحدر من نسل يزدجرد الثالث آخر أباطرة فارس[١].
وَسَّعَ سبكتكين مُلكه من ناحية الهند، فأنشأ بها حكومةً حاضرتها بشاور، كما امتد نفوذه إلى فارس باستيلائه على خراسان وما إليها.
وتَقَرَّبَ إليه نوحٌ الثانى ابن منصور، وعَيَّنَه والياً على خراسان، فاتسع مُلكه وثَبَّتَ أركانه، ولم يكن يربطه بالسامانيين إلا رباطاً أسمى لم يقلل من مكانته، فكان سلطانه أوسع من سلطان نوح[٢]، وأصبح له نفوذ فى بلاط السامانيين، إلى درجة أنه صار إليه تعيين الوزراء فى بلاط السامانيين[٣].
وقد استطاع سبكتكين بفضل انتصاراته التى أحرزها فى فتوحه أن يضع أساس الدولة الغزنوية.
ويَذْكُر ابن الأثير أن سبكتكين استولى على الناحية القريبة من غزنة وبست الواقعة بين سجستان وهراة، وأن صاحبها استعان به على الثوار الذين استولوا على بلاده، غير أنه ماطله ولم يَفِ بتعهداته له، فهزمه سبكتكين واستولى عليها، وأرغم واليها على الاعتراف به[٤]، وقد أتاحت هذه الانتصارات الفرصة لسبكتكين للاستيلاء على جزءٍ كبيرٍ من بلاد الهند.
لكن سبكتكين قبل وفاته أوصى بالحُكْمِ لابنه إسماعيل، وتجاوز ابنه الأكبر محمود الذى كان فى نيسابور آنذاك، فثار محمودٌ لذلك، وحارب أخاه إسماعيل وانتصر عليه، ثم أسرع فوضع نهايةً للدولة السامانية التى كانت فى أيامها الأخيرة، وبذلك بدأت أزهى عصور الغزنويين[٥].

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى، ج٨، ص٨٦.
(٢) العتبى: تاريخ اليمنى، ج١، ص١٨١.
(٣) العتبي: تاريخ اليمنى، ج١، ص٢٤١.
(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سنى ٢٦٦-٣٦٩هـ.
(٥) انظر: نظام الملك سياسة نامة، ص١٢٥.

محمود الغزنوي: (يمين الدولة ٣٨٨ ـ ٤٢١هـ):

تولى الحُكْم بعد انتصاره على أخيه إسماعيل، وأَلقى القبضَ عليه، ويُعتبر محمود بن سبكتكين من أشهر رجال الدولة الغزنوية، وقد استطاع بعد فترةٍ من وفاة أبيه سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م أن يبسطَ سلطانه على مُلك السامانيين فى خراسان وبلاد ما وراء النهر، كما فتح بلاد الفور فيما بين غزنة وهراة، ونَشَرَ الإسلام بين أهلها[١].

شكل (٣٨) محمود الغزنوي

(١) جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٨٩.

كذلك عَمِلَ محمود الغزنوى على القضاء على نفوذ البويهيين فى السرى وبلاد الجبل، كما حارب الأتراك الغزية أصحاب أرسلان بن سلجوق التركى، وكانوا يقطنون بخارى سنة ٤٢٠ هـ[١].

ولم تقتصر أعماله على فتح البلاد فى فارس، بل تَوَجَّه شطر بلاد الهند التى رأى فيها ميدانَ الجهادِ الأكبرِ، فغزاها سبع عشر مرة فى مدى سبعة وعشرين عاماً فيما بين سنتى ٣٩١-٤١٧هـ / ١٠٠١-١٠٢٦م، وقد اصطبغت حملاته إلى هذه البلاد بصبغةِ الجهادِ الدينى، وكان يهدف من غزو بلاد الهند نشر الإسلام فيها، فغزا مدينة الملقان سنة ٣٩٦هـ[٢]، وفتحها عنوةً وفرض على أهلها الجزية[٣].

إزاء هذه الأخطار التى كانت تهدد ملوك الهند وأمرائها بسبب هجمات محمود الغزنوى على أراضيهم، اتفقوا على الوقوف فى وجهه، وتوجهت قواتهم لملاقاته بأرض البنجاب[٤]، إلا أن محمود الغزنوى أوقع بهم الهزيمة، واستولَى على قلاعهم، وغَنِمَ من الذخائر والجواهر والأوانى الذهبية والفضية الشئ الكثير، وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم حيث عرضها فى صحن داره[٥].

كانت هذه الانتصارات دافعاً لمحمود الغزنوى لمواصلة هجماته على بلاد الهند، فاتجه إلى الولايات الشمالية، وعندما وصلت جيوشه إلى باردان سنة ٤١٠هـ / ١٠٢٠م خاف (هاردتا) - أحد ملوك الهند - على حياته من عقوبة الله، ولذلك اعتقد أن خير سبيل لنجاته هو الدخول فى الدين الإسلامى وترك عبادة الأصنام [٦].

---

(١) ابن الأثير:ج٩، ص١٣٠.

(٢) الملقان: مركز مشهور للحجاج الهنود فى جنوب البنجاب. معجم البلدان: ج٨، ص٢٠١.

(٣) ابن الأثير:ج٩، ص٦٤؛ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٩٠.

(٤) سرور: تاريخ الحضارة، ص٩٠.

(٥) انظر: ابن الأثير، ج٩، ص٧١.

(٦) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص٢٨٨.

شكل (٣٩) السلطان محمود مرتدياً رداء منحه له الخليفة العباسي القادر بالله من بغداد

شكل (٤٠) حملة السلطان محمود إلى كارجيستان

ووَالَى محمود الغزنوى فتوحاته فى بلاد الهند حتى وصل إلى سومنات سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٦م، وهناك وجد أمراء الهند قد حشدوا جموعهم للدفاع عن المعبدالأكبر فيها، فاشتبكا فى قتالٍ انتهى بانتصار محمود الغزنوى، واستولى على المعبد الذى كان له مكانةً مقدسةً عند اليهود، وحطم أصنام هذه المعابد، ولذلك سُمِّىَ محطم الأصنام، وأخذ إلى غزنة بعض أجزاء صنم سومنات، وجعل منها درجات للسلم الذى كان يصعد عليه الناس إلى مسجده العظيم بغزنة(١)، ثم زحف إلى كشمير، فأخضعها ودخل أكثر سكانها الإسلام، ثم زحف محمود الغزنوى إلى ما وراء النهر، فخضعت له سمرقند وبخارى ومَدَّ سلطانه إلى أسفيهان، وكانت بيد البويهيين، ثم احتل أجزاءً من إيران.

فَرِحَ محمود الغزنوى بهذه الانتصارات كثيراً، وأرسل إلى الخليفة القادر بالله العباسى يُطلعه على فتوحاته فى الهند، ويصف له الغنائم، وما وجدوه فى صَنَم سومنات(٢)، واتخذ محمود الغزنوى لاهور مقراً لحكومته بالهند، وعَيَّنَ بها نائباً عنه، واتسعت دولته حتى أصبحت تضم شمال الهند شرقاً، والعراق العجمى غرباً، وخراسان وطنجارستان وعاصمتها بلخ، وجزءاً من بلاد ما وراء النهر فى الشمال، وسجستان فى الجنوب(٣).

وحصل محمودٌ بذلك من الخليفة العباسى بالاعتراف به وبسلطانه على الأرمن التى يسيطر عليها، وفى عهده كانت قوة السلاجقة قد أخذت فى الظهور، ولكن قوة محمود كانت فى قمة مجدها، فأحنى له السلاجقة الرؤوس ودخلوا فى طاعته.

وبلغ الغزنوى فى فتوحاته «إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام راية، ولم تقل به قط سورة ولا آية فدحض عنها أجناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع(٤)، وأقام فصارت الأطفال تهدد فى بطالاتها بأقدامه، وتفرغ بإقبال ألويته وأعلامه(٥).

(١) أنظر:جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٩٠؛ موسوعة التاريخ الإسلامى: ج٨، ص٨٩.

(٢) وفيات الأعيان: ج٢، ص٨٤-٨٥.

(٣) جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٩٢ حتى تاريخ العرب ص٤٦٥.

(٤) وفيات الأعيان: ج٢، ص٨٥.

(٥) العتبى: تاريخ اليمنى، ج١، ص٣٨، ٣٩.

وقد أطنب العتبى[1] فى خصال محمود الغزنوى وسجاياه، وأشاد باتساع رقعة مُلكِه كثيرا.

وقد نقل العتبى عن بديع الزمان الهمذانى (٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) أبياتا يصف فيها ما بلغته الدولة الغزنوية فى عهد محمود الغزنوى، وتحول السيادة والنفوذ من العنصر الفارسى إلى العنصر التركى بقضاء محمود الغزنوى على الدولة السامانية[2].

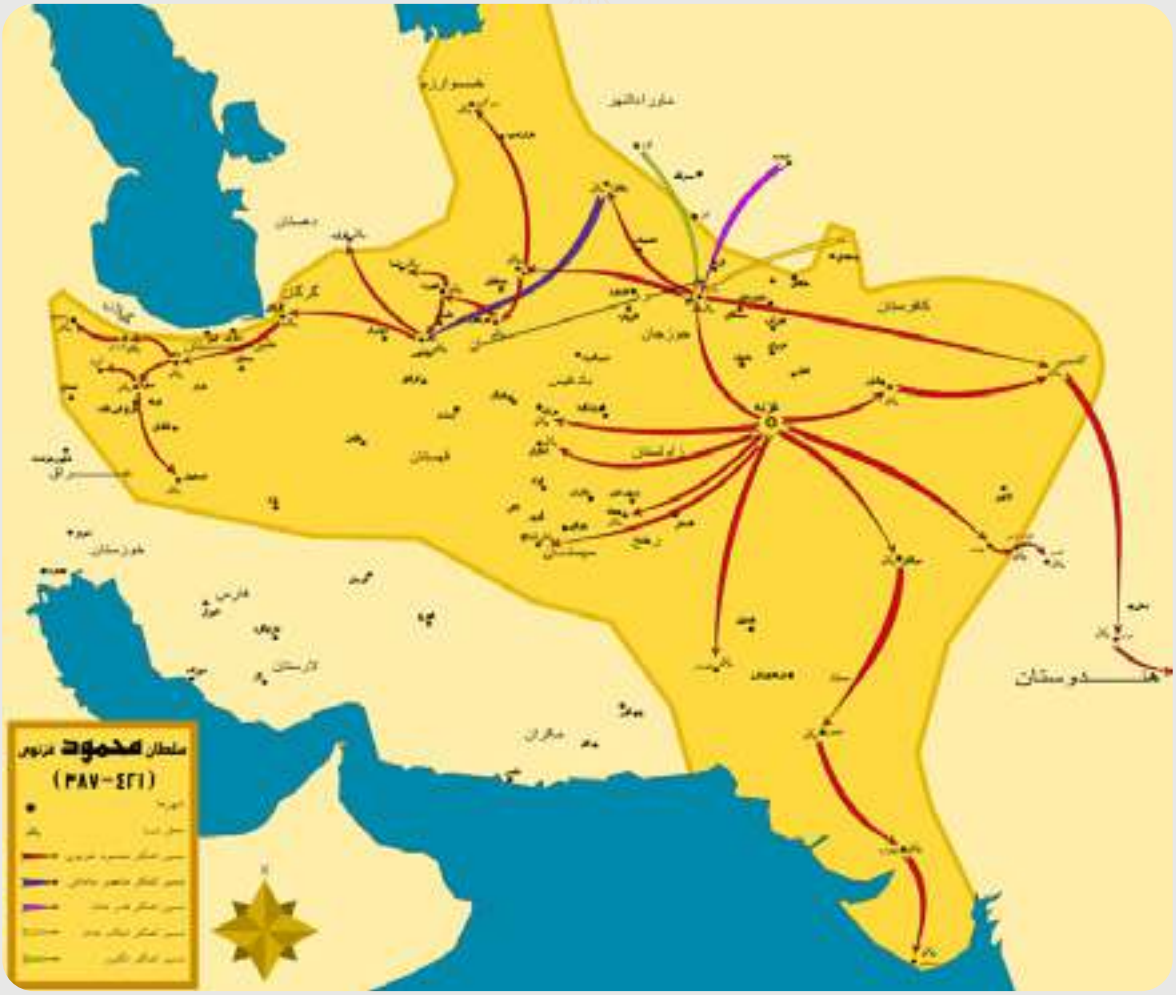

شكل (٤١) مسار حروب السلطان محمود الغزنوي

(١) انظر العتبى: اليمنى،ج١، ص٣٣، ٣٤.

(٢) انظر العتبى: اليمنى، ج١، ص٣٨٤-٣٨٦.

مسعود الأول: (٤٢١-٤٣٢هـ):

أوصى محمود الغزنوى بالحُكْم من بعده لابنه محمد نائبه ببلخ، ولَقَّبَه جلال الدولة، ولم يوصى لابنه الأكبر مسعود بسبب إيقاع الوشاه به عند أبيه، فلما مات محمود وصل محمد إلى غزنة بعد موته بأربعين يوماً وأغدق على قواده وعساكره فأطاعوه، أما مسعود فلما بلغه خبر وفاة أبيه - وكان بأصفهان - تَوَجَّه إلى خراسان، وكتب إلى أخيه أن يقرره على بلاد التى فتحها بعض بلاد طبرستان والجبل وأصفهان، ولكن محمودٌ رفض هذا الطلب، وانضم جنده إلى مسعود لكبر سنه وكفاءته، بل ثار بعضهم وقبضوا عليه وحبسوه وسملوا عينيه لإنشغاله باللهو والترف وإهمال شئون الدولة، ونادوا بأخيه مسعود سلطاناً وذلك فى ذي القعدة سنة ٤٢١هـ، أى بعد خمسة أشهر من تسلمه مقاليد الحكم [١]، ولقبه الخليفة العباسى القادر ناصر دين الله وظهير خليفة الله [٢] وسيد الملوك والسلاطين[٣].

عَمِلَ مسعود على فرض نفوذه فى بلاد المشرق، فاحتل مكران سنة ٤٢٢هـ، ثم كرمان، التى ما لبثت أن خرجت عن طاعته، ثم سار إلى خراسان لفتح العراق، فانتهز أحمد بن ينال تكين - نائب الغزنويين فى لاهور - الفرصة للاستقلال بهذه البلاد، مما اضطر مسعود إلى العودة إلى غزنة، وولى علاء الدولة بن كاكوية - وكان البويهيون قد دكوا أصفهان - فطلب من مسعود إقراره عليها مقابل دفع الجزية سنة، وأقر دارا لانور فى السرى ابن قابوس بن كشمير على جرجان وطبرستان، وأرسل أيا سهل الحمدونة لإقرار الأمور فى السرى، وتوجه مسعود إلى الهند وفتح قلعة (سرستى) الجبلية فى جنوب كشمير، والتى لم يستطع أبوه محمود من قبل أن يفتحها، وأرغم نائبه أحمد بن ينال على الارتداد إلى نهر السند حيث غزنة، ثم عاد فى السنة التالية إلى هذه البلاد واحتل قلاعه، وخلف ابنه مجدداً على بلاد البنجاب[٤].

وبعد أن تجاوز مسعود المشاكل التى واجهته فى بلاد الهند، تَعَرَّضَ لمصاعب خطيرة، تمثلت بالخطر السلجوقى، ومنازعة الغز له على السلطة.

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص١٥١.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٩٧.

(٣) ابن الأثير: ج٩، ص١٨١.

(٤) ابن الأثير: ج١، ص١٧٠- ١٧٢ - ١٨١.

أما الغز فقد طردهم من خراسان بعد حروبٍ استمرت حوالى عامين (٤٢٩-٤٣١هـ)، أما السلاجقة فقد تزايد خطرهم، فَنَهَبُوا هراة فى سنة (٤٢٢هـ / ١٠٣١م)، وبدأوا منذ سنة ٤٢٥هـ يُغِيرُون وبشكلٍ منظم على خراسان، لكن الأمير مسعود هزمهم فى سنة ٤٢٦هـ ، وبسبب انشغال مسعود بغزو الهند، فلم يستطع التفرغ للقضاء عليهم فتزايدت قوتهم، وطمعوا فى أملاك الغزنويين ، وكَرَّسُوا جهودهم للاستيلاء على نيسابور ومرو منذ سنة ٤٢٩هـ وعلى معظم بلاد خراسان باستثناء بلة، وإزاء ذلك اضطر مسعود إلى العودة من غزنة، فحاربهم وهزم طغرل سنة ٤٣٠هـ وطرد السلاجقة والغز من خراسان ، على أن السلاجقة لم يلبثوا أن هزموا مسعوداً سنة ٤٣٠هـ ، وقد كان لانتصار السلاجقة على مسعود أثرٌ كبيرٌ فى نفسه، فانسحب إلى بلاد

الهند أملا فى جيش كبير يحارب به السلاجقة[١]، لكن الأمور انقلبت رأساً على عقب، إذ أن موالى مسعود ثاروا عليه بعد عبوره نهر السند، ونهبوا خزائنه، وقبضوا عليه، وعَيَّنُوا مكانه أخاه (محمد) الذى كان بصحبته مسمولاً بعد أن قَبض عليه.

وبَقِىَ مسعودٌ ومن معه من العسكر، وانتهت الحروب الداخلية التى قامت بين جُند مسعود وبين أنصار محمد بقتل مسعود، وقد وصف ابن الأثير الأمير مسعود بقوله[٢]: أنه كان شجاعاً كريماً، ذا فضائل كثيرة، مُحِبَّاً للعلماء، فصنعوا له التصانيف الكثيرة فى العلوم، وكان كثير من الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة، قيل إنه تصدق مرة فى شهر رمضان بألف ألف درهم، وإنه عَمَّرَ كثيراً من المساجد، وأجزل العطاء للشعراء، وكان يكتب خطاً حسناً، وقد امتد نفوذه على أصبهان والسرى وهمذان وطبرستان وجرجان وخوارزم وكرمان والهند وغزنة وبلاد الغور والهند.

وبعد مقتل مسعود رجع أخوه محمد إلى غزنة، وبعث إلى ابن أخيه مودود بن مسعود بخراسان يبين له أن لا دخل له بقتل أبيه، فأجابه بكلامٍ يدل على الحزن الشديد لمقتل أبيه، فقال: «أطال الله بقاء الأمير القاسم (محمد بن محمود بن سبكتكين).

---

(١) ابن الأثير: ج٩، ص١٨٧.

(٢) ابن الأثير: ج٩، ص١٨٢.

ورزق ولده المعتوه أحمد عقلا يعيش به، فقد ركب أمراً عظيماً، وأقدم على أراقة دم ملك، مثل والدى الذى لقبه أمير المؤمنين سيد الملوك والسلاطين، وستعلمون فى أى حتف تورطتم، وأى شر تأبطتم، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون[١].

ثم توجه مودود بن مسعود من خراسان إلى غزنة، وحارب عمه محمدا بالقرب من دينور على طريق كابل وشاور وانتصر عليه، ودخل غزنة وقتل جميع أولاد عمه محمد، عدا واحداً لأنه غضب لمقتل عمه، كما قتل مودود وكل من ظن أنه اشترك بالمؤامرة، وكان ذلك سنة ٤٣٢هـ، وخاف الغز السلاجقة من انتصارات مودود، فثار عليهم أهالى البلاد التى خضعت لهم ودخلوا فى طاعة مودود، فأصبح قوياً لا يعتقد بأن أحداً ينافسه، إلا أخاه مجدودا، الذى كان والياً على أقاليم البنجاب، ومنذ سنة ٥٢٦هـ تمرد مجدود على حكم أخيه، وأعلن استقلاله فى لاهور والمولتان، ثم سار على رأسِ جيش كبير متجهاً إلى غزنة، غير أن الموت عاجله فى الطريق، فمات بعد أن وصل إلى لاهور بثلاثة أيام فى ذى الحجة سنة ٤٣٢هـ / آب ١٠٤١م[٢].

وعلى مر السنين أصبح السلاجقة يُشَكِّلُون خطراً يهدد الدولة الغزنوية، فاستطاع الأمير ألب أرسلان بن داود السلجوقى أن يهزم جيش مودود الغزنوى سنة ٤٣٥هـ، رغم أن بعضاً من قطاعات جيش مودود تمكنت من القضاء على جماعة من الغز بنواحى (بست)[٣]. وقد حاول ثلاثةٌ من ملوك الهند محاصرة لاهور حاضرة الغزنويين فى هذه البلاد، ولكن مودود هزمهم.

ونتيجة لهذه الانتصارات فقد استعاد الغزنويين هيبتهم فى بلاد الهند الشمالية إلى حين، وعمل مودود على استرداد البلاد التى استولى عليها السلاجقة فى عهد أبيه، وحصل على مساعدة ملك الترك وصاحب أصبهان، ولكن الموت عاجل مودوداً، إذ إنه مرض أثناء مسيره سنة ٤٤١هـ لحرب السلاجقة، فعاد إلى غزنة ومات فيها فى ٢٠ رجب سنة ٤٤١هـ عن عمرٍ يناهز التاسعة والعشرين عاماً، بعد أن حَكَمَ تسع سنوات وعشرة أشهر[٤]، فحال موته دون القضاء على السلاجقة،

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٩٩.

(٢) ابن الأثير: ج٩، ص١٨٧.

(٣) ابن الأثير: ج٩، ص١٩٢، ١٩٣.

(٤) ابن الأثير: ج١٠، ص٢٠٨.

وبعد وفاة مودود تولى ابنه مسعود الحُكْم، ولكنه لم يبق فيه سوى خمسة أيام فقط، ثم تقلد السُلْطَة عمه أبوالحسن على بن مسعود الأول، وقد انتهز عبدالرشيد بن محمود الغزنوى هذا الاضطراب الذى ساد الدولة الغزنوية بعد موت مودود، فدعا الجند إلى طاعته، فأجابوه وتوجهوا إلى غزنة، فهرب علي بن مسعود واستقر الأمر له، وتلقب عزالدولة، وسيف الدولة، وشمس دين الله وقيل أيضا جمال الدولة[١].

وقد حاول عبدالرشيد طرد السلاجقة من خراسان، بمساعدة طغرل زوج أخت مودود وحاجبه الذى بعثه إلى هذه البلاد، ولما أدرك طغرل قوته تَوَجَّهَ إلى غزنة وحاول خداع عبدالرشيد، فاعتصم هذا الأمير بقلعته فى غزنة، ولكن طغرل استطاع القبض عليه وقتله سنة ٤٤٤هـ، واحتل بلاده وتزوج ابنة مسعود الأول، لكن تصرفات طغرل أغاظت القوات، مما جعلهم يتحالفون مع نائب الغزنويين فى الهند ومع زوجة طغرل.

فدخل القواد على طغرل وقتلوه وعَيَّنوا فروخ شاه مكانه، وقد حارب السلاجقة عدة سنوات، وفى سنة ٤٥٠هـ ثار عليه قواده ومماليكه، واتفقوا على قتله وهو فى الحمام، ولكنه نجا بمساعدة بعض أنصاره.

ويبدو أن هذه الحادثة أَثَّرَت فى نفسه، فلم يعش طويلاً، حيث مات فى شهر صَفَرٍ سنة ٤٥١هـ، وتولى السُلطة بعده أخوه إبراهيم بن مسعود (٤٥١-٤٩٢هـ) فعقد هذا الصلح مع السلاجقة وفتح كثيراً من القلاع فى الهند[٢].

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج٣، ص١٠١.

(٢) ابن الأثير: ج١٠، ص٢.

نُظُم الغزنويين وحضارتهم:

وصلت الدولة الغزنوية إلى أوج قوتها فى عهد يمين الدولة محمود الغزنوى بحكم مملكة واسعة جداً، وحصل على مالٍ كثيرٍ من غزواته وبخاصة فى بلاد الهند التى كانت معابدها حافلة بالثروات، ولذلك عَمِلَ محمود الغزنوى على أن يجعل من غزواته عاصمة أوسع مملكة فى ذلك الوقت، فقد اهتم ببناء القصور والمساجد، وسار على نهجه أتباعه، ويُذكر أنه أنفق أموالاً طائلةً على بناء مسجده الذى لم يكن هناك ما يضارعه فى ذلك الوقت.

ووُصِفَ محمود الغزنوى بالعدل بين الرعية، كما عُرِفَ عنه حبه للعلماء والتقرب منهم.

ويقول الدكتور أحمد العبد سليمان [١]: «فما يلفت النظر أن محموداً كان حامياً للعلوم والآداب والفنون الجميلة، بقدر ما كان قائداً ورجل سياسة، وقد اجتمع فى صالونه بغزنة من الشعراء عنصر وعسجدى وفرضى والفردوس وغيرهم من أدباء العصر وعلمائه، بحيث عجزت كل العواصم عن منافسته فى ذلك، وازدانت غزنة فى ذلك العصر بما لا مثيل له فى غيرها من القصور والمساجد والقنوات والمبانى الفخمة والآثار النافعة، لأن محموداً عَرِفَ كيف يستفيد من آثار الهند العمرانية، بنفس القدرة التى عَرِفَ بها كيف يغير عليها».

وكان السلطان محمود يستدعى العلماء والشعراء إلى بلاطه فى غزنة من أمثال عنصرى الشاعر ألبيرونى والعالِم والمؤرخ، كما استدعى الفردوسى الذى بذ أقرانه كثيراً.

ففى بلاطه نَظَمَ الفردوسي ملحمته الشهيرة الشاهنامه (كتاب الملوك) وكانت ٦٠ ألف بيت من الشعر، تدور حول أمجاد (أربع دول منها: ألبارثيون والساسانيون، ودولتان خرافيتان مأخوذتان من أساطير الأدفستا[٢].

وأظهرت هذه الملحمة اهتماماً زائدا بقصص البطولة والفروسية، وكانت مصدرَ إلهامِ العديدِ من شعراء الفُرْس المتأخرين، كما كانت مصدر إلهامٍ لبعض الشعراء الغربيين، ونتيجةً للشهرة التى حظيت بها هذه الملحمة فى إيران فإنه قلما يوجد من لم يحفظ منها قليلاً وكثيراً حتى الآن، ويَذكر البعض أن محمود الغزنى كان

(١) أحمد سعيد: تاريخ الدول الإسلامية: ج٢، ص٥٩٠.

(٢) أحمد شلبى: موسوعة تاريخ الحضارة: ج٨، ص٩٠.

مشغولاً بالأعمال الحربية ومهتما بتوسيع دولته، ثم إن نفوراً حدث بينه وبين الفردوسى بسبب اهتمام الفردوسى بالمبالغة فى مدح الفُرس بنى قومه فى ملحمته الشاهنامه، وأنه يفضلهم على الأتراك الذين ينحدر منهم الغزنوى، ولعل هذا هو الذى جعل أُعطية السلطان المالية لهذا الشاعر قليلة، فوزعها على الناس استخفافاً بها، وعندما عَلِمَ السلطان بذلك طلبه، إلا أنه هرب يلجأ هنا وهناك، ويبدو أن السلطان

شكل (٤٢) الفردوسي

ً الغزنوى لم يعرف قدر الفردوسى إلا فى أواخر حياته، ولكن بعد فوات الأوان[١].
وقد كتب معاصرى الفردوسي مؤلفاتهم باللغة العربية، كما أن الحروف العربية حلت محل الحروف الفارسية، وجاء بعد الفردوسي من العلماء مَنْ كتب باللغتين العربية والفارسية مثل السعدي، وَوُجِدَ بين العرب من عَرِفوا اللغة الفارسية واهتموا بها[٢].
واهتم بالأدب بعد محمود الغزنوى فى غزنة، أخوه نصر فى نيسابور وبخارى فى عهد السامانيين، ثم فى عهد الغزنويين وقصورٍ العلويين والزبيريين فى طبرستان، وقصور ملوك خوارزم فى مدينة خيوة، إضافةً إلى قصر الصاحب بن عباد وزير البويهيين فى أصفهان، وكان أبوريحان البيرونى مِنْ مشاهير العلماء، وقد عاش فى رعاية أمراء خوارزم فى أخيوة، ثم عاش فى كنف قابوس شمس المعالى فى طبرستان، كما عاش أخيراً فى رعاية وكنف السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى، وفى كل أفراد أسرته من بعده[٣].

العلاقة بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة:

عصر نفوذ الأتراك ٢٣٢-٣٣٤هـ/ ٨٤٧-٩٤٥م:

رغم أن نفوذ الأتراك ظهر - كما رأينا - منذ عهد المعتصم، فإن استبدادهم بالأمر لم يظهر إلا بعد وفاة الواثق، وقد تمت بيعة جعفر المتوكل بن المعتصم بإرادة أحد زعمائهم البارزين وهو «وَصيف»، بعد أن كادت البيعة تتم لمحمد بن الواثق وكان غلاماً.
يقول أحد الشعراء:

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا *** يقول ماقلاً له كما تقول الببغا

ولم يكن المتوكل بالخليفة المستضعف، فحاول غير مرة أن يضع حداً لطغيان الأتراك؛ فقد دَبَّرَ مقتل إيتاخ بعد أن وصل نفوذه مدىً لا يمكن قبوله، والملاحظ أن إيتاخ كان أثيراً لدى المعتصم والواثق. يقول الطبرى: «كان لإيتاخ رُجْلَةٌ وبأسٌ فرفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم إليه من أعمال السلطنة أموالاً كثيرة.. وكان من أراد المعتصم والواثق قتله فعند إيتاخ يقتل وبيده يحبس»[٤].

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى: ج٨، ص٩٠.
(٢) إيران: ماضيها وحاضرها: ص٥٥-٥٦؛ موسوعة التاريخ الإسلامى، ج٨، ص٩١.
(٣) تاريخ الأدب فى إيران: ص١١٦-١١٧.
(٤) الطبرى: تاريخه، ج٩، ص١٦٦.

وقد استفحل نفوذ إيتاخ فى خلافة المتوكل حتى إنه هَمَّ يوماً بقتل الخليفة حين تبسط الأخير معه فى المزاح، وحين أدرك المتوكل خطورة إيتاخ دبر خطة ناجحة للتخلص منه فى سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩م، ولكن القضاء على إيتاخ لم يضعْ نهايةً لتسلط غيره من الأتراك؛ ومن هنا أراد المتوكل فى أواخر خلافته أن يوجه إليهم ضربةً قاصمة، فعزم على قتل «وصيف بُغَا» وغيرهما من قادة الأتراك، ولكن الأتراك كانوا أسرع منه فاستغلوا جفوةً كانت بينه وبين ابنه وولى عهده محمد المنتصر[١]، فأشركوا المنتصر معهم فى مؤامرة انتهت بقتل المتوكل ووزيره الفتح بن خَاقَان فى شوال سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م، ثم نَصَّبُوا المنتصر خليفة.

وهكذا نجح الأتراك فى الإطاحة بخليفة وتتويج خليفة، وكان هذا حادثاً له ما بعده؛ فقد أصبح مثل هذا التصرف أمراً مألوفاً منهم إبان فترة سطوتهم، ولم تَطُل خلافة المنتصر؛ فقد توفى فى ربيع الأول سنة ٢٤٨هـ/ ٨٦٢م عن خمسة وعشرين عاماً تقريباً، وكان من الطبيعى أن يجتمع الأتراك ليختاروا من يشاءون للخلافة فاجتمعوا بزعامة بُغَا الصغير وبُغَا الكبير واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم الملقب بالمستعين، وكان فى الثامنة والعشرين من عمره. ولكن بعد مضى وقت غير طويل غضب بعض قادة الأتراك على المستعين فبايعوا المعتز محمد بن المتوكل بالخلافة، واشتعلت بين أنصار المستعين وأنصار المعتز حرب انتهت بسجن المستعين ثم بقتله فى سجنه، وقد كانت بيعة المعتز وخلع المستعين فى المحرم سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٧م.

يقول ابن الطقطقى عند تناوله لسيرة المعتز: «لم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس، إلا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء؛ فكان الخليفة فى يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه»[٢]، وقد حدث أن طلب الأتراك من المعتز مالًا فاعتذر لهم بفراغ بيت المال فثاروا به وضربوه ومزقوا ملابسه وأقاموه فى الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده، ثم سجنوه فى سرداب حتى مات، وكان ذلك فى شعبان سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م.

وكان أهمُ تطورٍ حدث فى نهاية خلافة المعتز هو بداية قيام الدولة الصفارية فى فارس بزعامة يعقوب بن الليث الصفار، قد كانت هذه الدولة تدين إسمياً للخلافة وإن كانت مستقلة من الناحية العملية، وقد امتد سلطانها إلى خراسان فى بعض

(١) المسعودى: مروج الذهب، ج٤، ص٦٠.

(٢) الفخرى، ص٢٢٠.

مراحلها (فى أيام المعتمد)، ونجحت فى عزل الطاهريين عنها، ورغم ضعف هذه الدولة بعد وفاة مؤسسها يعقوب فى سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م فإنها استمرت بعده حتى سنة ٢٨٩هـ / ٩٠١م[١].

وفى عهد المعتز أيضاً فى سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م ذهب أحمد بن طولون إلى مصر نائباً عن واليها، ولكنه استطاع فى فترة لاحقة أن يستقل بها عن العباسيين، وأن يضم الشام إلى سلطانه، وبذلك قامت الأسرة الطولونية واستمرت حتى ٢٩٢هـ / ٩٠٤م، حيث سقطت فى خلافة المكتفى العباسى.

وبعد خلع المعتز بايع الأتراك المهتدى بالله محمد بن الواثق خليفةً للمسلمين، وقد كان المهتدى تقياً شجاعاً حليماً، وكان يتخذ من عمر بن عبدالعزيز مثله الأعلى ويقول: «إنى أستحيى أن يكون فى بنى أمية مثله ولا يكون مثله فى بنى العباس»، ولهذا نبذ الملاهى وحرم الغناء والخمور وحارب الظلم، وفوق ذلك فقد أراد أن يوقف طغيان الأتراك واستبدادهم، فقتل بعضهم ولكنهم ثاروا عليه وأسروه وعذبوه ليخلع نفسه فأبى، فخلعوه هم وسجنوه ومات فى سجنه من التعذيب، وكان ذلك فى رجب سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م[٢].

وقد كان أهم ما شهده عهد المهتدى من أحداث هو بداية ثورة الزنج التى اندلعت فى البصرة ونواحيها سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م، وقد سميت هذه الثورة بثورة الزنج لأن عدداً كبيراً من المشتركين فيها كانوا من العبيد السود، رغم أنها ضمت عناصرَ أخرى. وقد تزعم هذه الثورة رجلٌ يقال له على بن محمد ابن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين على بن أبى طالب، رغم ما يحيط بصحة هذا النسب من شكوك. وقد انتشر الزنج فى العراق والبحرين وهجروا وعاثوا فساداً فى تلك المناطق وروعوا الآمنين، واستمرت ثورتهم خمسة عشر عاماً حتى استطاع القائد العباسى الموفق طلحة بن المتوكل أن يبدد جموعهم، ويخمد ثورتهم سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م فى خلافة المعتمد.

وقد بويع المعتمد على الله أحمد بن المتوكل بالخلافة فى سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م بعد خلع المهتدى، وببيعة المعتمد بدأت صحوةً مؤقتةً فى تاريخ الخلافة فى ذلك العصر.

---

(١) محمد حلمى أحمد: الخلافة والدولة فى العصر العباسى، ص١٣١-١٤٦.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، ج١٢، صفحات متفرقة؛ ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٤٧.

صحوة الخلافة العباسية (٢٥٦-٢٨٩هـ / ٩٦٦-٩٩٨م):

أدى تصاعد الصراع الداخلى بين قادة الأتراك، ثم سوء معاملتهم لجنودهم وازدياد شكوى الجمهور من مضايقاتهم، إلى خلقِ اتجاهٍ قويٍ داخل الجيش، يدور حول جعل القيادة العسكرية العليا فى يد أحد أمراء البيت العباسى ممن يختارهم الخليفة ويدين له الجميع بالطاعة، وقد أمكن تنفيذ هذا المطلب فى بداية عهد المعتمد سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م، فكان هذا سبباً بارزاً من أسباب صحوة الخلافة، على أن هناك سبباً آخر تمثل فى شخصية القائد الذى اختاره الخليفة المعتمد لتولى هذه المهمة - أى قيادة الجيش - وذلك القائد هو الموفق أو أحمد طلحة أخو الخليفة المعتمد؛ فقد كان الموفق شخصية تتمتع بالحزم والقوة وصلابة الإرادة، وهكذا وجد المنصب الخطير شخصيةً جديرةً بأن تملأه، فاستردت الخلافة قوتها وهيبتها، واستطاع الموفق أن يكبح جماح الأتراك، وأن يعيد تنظيم الجيش، وأن يُقِرَّ الأمن والنظام، ورغم أن المعتمد كان الخليفةُ الرسمىُ، فقد كان الموفق صاحب السلطة الفعلية، وهو الذى بيده العقد والحل. يقول ابن الطقطقى: «وكانت دولة المعتمد دولةً عجيبةَ الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة، للمعتمد الخطبة والسَّكَّة والتسمى بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقيادة العسكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء»(١)، وقد كان أخطر وأهم إنجاز للموفق هو قضاؤه على ثورة الزنج فى سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م كما سبق أن ذكرنا.

(١) الفخرى، ص٢٢٦.

شكل (٤٣) ثورة الزنج

وتوفى الموفق فى صَفَرٍ سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م، وفى العام التالى (رجب ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) توفى الخليفة المعتمد، وبويع بعده بالخلافة أبوالعباس المعتضد بالله بن الموفق. وقد ورث المعتضد من أبيه الموفق قوة الشخصية، فاستمرت الخلافة فى عهده موفورة الهيبة مسموعة الكلمة كما كانت فى عهد أبيه وعمه المعتمد، ولقب بالسفاح الثانى، وفى ذلك يقول ابن الرومى:

هنيئاً بنى العباس إن أمامكم
إمام الهدى والبأس والجود أحمد
كما بأبي العباس أنشئ ملككم
كذا بأبى العباس أيضاً يجدد
إمام بِظِلِّ الأمس يمل نحوه
بلهف ملهوف ويشاقه الغد

وبوفاة المعتضد فى ربيعٍ الآخر سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م انتهت الفترة التى اصطلح على تسميتها باسم «صحوة الخلافة»، حيث تولى بعده ابنه المكتفى ولم تكن له شخصية والده أو جده، فكانت خلافته تمهيد لعودة الأمور إلى ما كانت عليه.

وقد كان من أخطر الأحداث التى شهدتها فترة صحوة الخلافة ظهور القرامطة، وقد بدأ ظهور هذه الجماعة بسواد الكوفة فى سنة ٢٧٨هـ/٨٩١م بزعامة رجل اسمه حمدان، ويلقب بـ»قرمط»، ثم اشتدت شوكة القرامطة بظهور رجلٍ آخرٍ منه يعرف بأبى سعيد الجنابى بالبحرين فى سنة ٢٨٦هـ/٨٦٩م. وقد تظاهر قادة القرامطة بالزهد والتقشف وبالدعوة إلى إمامٍ من آل البيت، ولذا انضم إليهم الكثيرون من سواد الكوفة والبحرين نظراً لتشيع تلك المناطق، وبرغم أن حركة القرامطة كانت تُظهرُ مبادئ براقة لاجتذاب الأنصار، فقد كانت حركةً تهدف إلى هدم كيان المجتمع الإسلامى، وهى تمت ببعض الوشائج إلى حركاتٍ كحركة الخرمية أو الزنج، رغم أن حركة القرامطة كانت أكثر تعقيداً وخطراً وامتداداً فى أعماق التاريخ، وهى تختلط أحياناً بالحركة الإسماعيلية، ويطلق عليها أحياناً حركة الحشاشين[1]. وقد أعيت العباسيين، وحقق الفاطميون ضدها انتصارات هامة، ولكن الحديث التفصيلى عن هذه الحركة الأخيرة فى التاريخ الإسلامى يخرج بنا عما نحن بصدده.

ذكرنا إن خلافة المكتفى سنة ٢٨٩هـ / ٩٠١م أنهت الصحوة المؤقتة للخلافة، ورغم أن المكتفى لم يُقَلْ ولم يُخْلَع، بل تُوفى وفاةً طبيعيةً فى ذى القعدة سنة

(١) الفخرى: ص٢٣٦.

٢٩٥هـ / ٩٠٧م، ورغم أنه كان يتحلى بكثيرٍ من الصفات الإيجابية، فإن سيطرته على مقاليد الأمور كانت أقلَ من سيطرة سلفيه العظيمين، وقد ازدادت الأمور تدهوراً بعد وفاته؛ فقد تولى جعفر بن المعتضد الخلافة وهو صبى فى الثالثة عشرة من عمره ولقب بالمقتدر بالله، وكان طبيعياً أن تصبح الخلافة نهباً للطامعين والخليفة لم يبلغ الحُلُم.

يقول ابن الطقطقى: «واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليطٍ كثيرٍ لصغر سنه، ولإستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه؛ فكانت دولته تُدَوِّرُ أموره على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذته، فخربت الدنيا فى أيامه وخَلَتْ بيوت الأموال واختلفت الكلمة فخُلِع ثم أعيد ثم قُتل (١)، وقد كان من أهم الأحداث التى شهدها عهد المقتدر ظهور الفاطميين فى المغرب فى أواخر القرن الثالث الهجرى، حيث قضوا على دولة الأغالبة فى تونس، واستولوا على مدينتهم القيروان فى سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨م، وسوف تتسع الدولة الفاطمية فيما بعد وتستولى على مصر سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م، وقد استطاع الحمدانيون أيضاً أن يستقلوا بالموصل فى عهد المقتدر سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م، ثم استولوا بعد عهده (فى سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م) على حلب تحت زعامة سيف الدولة الحمدانى.

يتضح من هذه الإشارات الخاطفة مدى تقلص نفوذ الخلافة فى عهد المقتدر؛ وذلك أن الخليفة فَقَدَ سيطرته حتى على أجزاء هامة من العراق كالموصل حيث الحمدانيون، والكوفة حيث القرامطة، هذا فضلاً عن انعدام سيطرته تماماً على أجزاء عريضة فى الشرق والغرب، وقد قُتِلَ المقتدر فى شوال سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م فى معركةٍ بينه وبين قائده مؤنس الخادم.

وفى الفترة التى تليت مقتل المقتدر حتى بداية ظهور البويهيين فى العراق اعتلى العرش أربعة خلفاء هم القاهر (٣٢٠-٣٢٢هـ / ٩٣٢-٩٣٣م)، والراضى (٣٢٢-٣٢٩هـ / ٩٣٣-٩٤٠م)، والمتقى (٣٢٩-٣٣٣ / ٩٤٠-٩٤٤م)، والمستكفى (٣٣٣-٣٣٤هـ / ٩٤٤-٩٤٥م)، ولم يكن لهؤلاء الخلفاء حولٌ ولا قوةٌ؛ فانتشرت فى أيامهم الفوضى والاضطرابات والدسائس، واشتد الصراع على كرسى الوزارة، وبرز فى هذه الحلبة رجالٌ من أمثال ابن الفرات، وابن مُقلة، وعلى بن عيسى وغيرهم، وكثرت المصادرات فانعدم الإحساس بالطمأنينة والأمن، واستغل بعض الولاة هذه

(١) الفخرى: ص٢٣٦.

الظروف فرفضوا إرسال الأموال إلى العاصمة، ومن هؤلاء محمد بن رائق والى البصرة، والبريدى والى الأهواز، وأسس الإخشيديون دولة بمصر سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٥م، كما استولى البويهيون على فارس، وفى ظل هذه الظروف المضطربة نشأ منصب أمير الأمراء.

أمير الأمراء:

ترجع نشأة هذا المنصب إلى عهد الخيفة الراضى؛ فقد عَهِدَ هذا الخليفة إلى ابن رائق برئاسة الجيش والإشراف على شئون الخراج، وفى نفس الوقت خلع عليه لقب «أمير الأمراء»، أى أنه فوض إليه تدبير المملكة. وهكذا أصبح الخليفة بدون سلطان حقيقى، حيث تولى المسئولية عنه أمير الأمراء الذى تركزت فى يده السلطة وآل إليه الأمر والنهى. فليس من المستغرب إذن أن تشرئب إلى هذا المنصب الخطير أعناق كبار رجال الدولة وقادتها، وأن يتقاتلوا من أجله، فازدادت الأحوال بذلك اضطراباً وتدهوراً، واستمرت على هذا النحو فى عهد المتقى الذى خلف الراضى، ثم في عهد المستكفى، وكان هذا الوضع وراء ظهور النفوذ البويهى فى بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م.

عصر نفوذ البويهيين (٣٣٤-٤٤٧هـ / ٩٤٥-١٠٥٥م):

يُنسب بنو بويه أو البويهيون إلى رأس الأسرة أبى شجاع بويه الذى نشأ فى بلاد الديلم، وتقع تلك البلاد فى الجنوب الغربى لبحر قزوين أو بحر الخزر بين منطقة طبرستان والجبال، وقد نشأ بويه هذا فقيراً، وكان له ثلاثة أولاد هم أحمد وعلى والحسن، الذين لُقِّبُوا فيما بعد بمعزالدولة وعمادالدولة وركن الدولة على الترتيب.

والتحق هؤلاء الإخوة الثلاثة بجيش «ما كان بن كالى» أحد قادة العلويين ببلاد الديلم؛ فقد كانت الجندية فى ذلك الوقت مورداً للرزق، ولم يلبث هؤلاء الإخوة أن أظهروا فى خدمتهم فى جيش «ما كان» مهارةً عسكريةً عاليةً فارتفع شأنهم، ولكن «ما كان» دخل بعد ذلك فى صراعٍ مع منافسٍ فارسى آخر فى تلك المناطق اسمه «مرداويج بن زيار»، وأَحَسَّ البويهيون الثلاثة أن انضمامهم لجيش مرداويج سيكون أكثر تأميناً لمستقبلهم، لأن مرداويج كان قد قوى أمره فى حين ضعف أمر «ما كان»، وهكذا انضموا لمرداويج الذى رَحَّبَ بهم، بل إنه ولى أحدهم وهو على بن بويه إقليم «الكرج»، فكان ذلك نقطة انطلاق البويهيين نحو المجد؛ فقد نجح «على» بعد ذلك فى السيطرة على معظم بلاد فارس، واستطاع أخوه أحمد بن بويه - بتشجيعٍ منه - أن يتقدم صوب العراق، وأن يستولى على الأهواز وواسط.

وكانت الخلافة فى تلك الفترة - كما ذكرنا - تعانى من الفوضى الضاربة والنزاع حول منصب أمير الأمراء، فأغرت انتصارات أحمد بن بويه عدداً من قواد بغداد أن يكاتبوه ويطلبوا منه القدوم إلى عاصمة الخلافة ليضع حداً للفوضى بها، ووجدت تلك المبادرة ترحيباً كاملاً من الخليفة المستكفى الذى أحسن استقبال أحمد بن بويه، وعينه أميراً للأمراء وخلع عليه لقب «معزالدولة»، كما لَقَّبَ أخاه عليًّا «عمادالدولة»، وأخاه الحسن «ركن الدولة»، وكان «علي» حاكماً لإقليم فارس، وكان الحسن حاكماً لإقليمى الرى والجبل عند دخول أحمد بن بويه بغداد فى ربيع الثانى سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م.

وهكذا بدأ عصرٌ جديدٌ متميزُ الملامح فى تاريخ الخلافة، وهو الذى يعرف باسم عصر نفوذ البويهيين، وقد تولى منصب الخلافة فى ذلك العهد أربعة خلفاء هم المطيع (٣٣٤-٣٦٣هـ / ٩٤٥-٩٧٣م)، والطائع (٣٦٣-٣٨١هـ / ٩٧٣-٩٩١م)، والقادر (٣٨١-٤٢٩هـ / ٩٩١-١٠٣٧م)، والقائم الذى تولى الخلافة فى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م وعاصر بداية نفوذ السلاجقة فى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م.

شكل (٤٤) الدولة البويهية

وتجدر الإشارة إلى أن الخليفة المستكفى الذى كان آخر خلفاء عصر نفوذ الأتراك استمر فى منصب الخلافة مدة تقل عن شهرين بعد ظهور النفوذ البويهى؛ فقد خلعه معزالدولة فى أول جمادى الآخر سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، ثم أمر به فسلمت عيناه[١] ، وبايع بعده بالخلافة أباالقاسم الفضل بن المقتدر ولَقَبُه بالمطيع لله.

لنا أن نستنتج من هذه البداية القاسية لعصر البويهيين أن الخلفاء فى تلك الفترة لم ينعموا بوضعٍ أفضلٍ مما نعموا به فى ظل نفوذ الأتراك، ولابد أن نلاحظ هنا أن البويهيين كانوا شيعة فلم يكن الخلفاء يتمتعون لديهم بأى اعتبارٍ دينى، فضلاً عن الاعتبار السياسى الذى فقده هؤلاء منذ قرنٍ تقريباً. فلم يكن تاريخ الخلافة فى العصر البويهى إلا تاريخاً للبويهيين الذين أصبح لهم حق تعيين الوزراء والقواد وغيرهم من كبار رجال الدولة، وتحول الخليفة بذلك إلى مجرد «موظف» فى مملكة البويهيين، يحدد له هؤلاء دوره وراتبه بالصورة التى يريدون، وقد كان سهلاً على البويهيين الشيعة أن يُسْقِطُوا الخلافة السنية فى بغداد، ويقيموا خلافة شيعية، خصوصاً إذا عَرَفْنا أن الدولة الفاطمية كانت قد وطدت أقدامها فى الشمال الإفريقى حينذاك، ولكن البويهيين أصغوا لنصيحة من حذرهم من خطورة وجودِ خليفةٍ شيعيٍ يَعتقد أصحابهم بصحة إمامته؛ ذلك أن البويهيين سيصبحون مشلولى الإرادة مع الخليفة الشيعى، وليس الأمر كذلك مع الخليفة السُّنى الذى لا يؤمنون هم ولا أصحابهم بصحة خلافته.

ومهما يكن فإن نفوذ البويهيين بالعراق بدأ يتعرض لامتحاناتٍ قاسيةٍ بعد وفاة أحمد بن بويه (معزالدولة) فى ربيع الآخر سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٦م؛ ذلك أن عزالدولة بختيار بن معزالدولة الذى خلف والده على شئون العراق كان ضعيف التدبير، مُكِبَّاً على اللهو، فتدهورت الأمور فى عهده، وانتشرت الدسائس، مما شجع ابن عمه عضدالدولة بن ركن الدولة أن يتقدم بجيوشه صوب بغداد وأن يخلع بختيار ويسجنه، ولكن ركن الدولة لم يرض من ابنه عضدالدولة ذلك التصرف؛ فأعيد بختيار على أن يحكم العراق باسم ركن الدولة، وعندما تُوفى ركن الدولة وجد ابنه عضد الدولة أن الفرصة مواتية لتوجيه ضربةٍ قاصمةٍ لبختيار، فهاجمه في بغداد وقتله فى شوال سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م، وهكذا آل حكم أرض العراق نهائياً لعضد الدولة وأسرته، وقد بلغ نفوذ بنى بويه واتساع سلطانهم إلى ذروته فى

(١) مات المستكفى سنة ٣٣٨هـ عن ست وأربعين سنة فى سجنه بدار معز الدولة. أنظر: النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢٩٩.

عهد عضد الدولة، الذى كان أول من خوطب بالملك شاهنشاه فى الإسلام[1].

وبعد وفاة عضد الدولة فى سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م تجدد الصراع على السلطة فى بغداد، وكان أطراف الصراع الأساسيون هم أولاد عضدالدولة الثلاثة شرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة. ودخل هذا الصراع فى مراحلٍ طويلةٍ مات خلالها شرف الدولة سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩م، وقُتل صمصام الدولة فى سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م، فاستقر الأمر لبهاء الدولة بدون منازع.

ولا شك أن هذا الصراع الداخلى قد ترك آثاره السلبية على نفوذ البويهيين فى العراق، وقد تجدد هذا الصراع بعد وفاة بهاء الدولة فى سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م؛ فَقَدْ عَهِدَ بهاء الدولة بالمُلك من بعده لابنه أبى شجاع سلطان الدولة، الذى اضطر لخوض عدة حروب ضد أخيه ومنافسه مشرف الدولة، وبعد سنواتٍ من النزاع والفتنِ توصل الأخوان إلى عقد صلحٍ بينهما، اعترف فيه مشرف الدولة بسلطةِ أخيه فى العراق، ثم مات سلطان الدولة فى سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م، وفى العام التالى ٤١٦هـ / ١٠٢٥م مات أخوه شرف الدولة، فتولى الأمر بعده فى العراق أبوطاهر جلال الدولة بن بهاء الدولة الذى استمر فى سلطنته حتى وفاته فى شعبان سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٢م، ولم يَدُمْ مُلك البويهيين طويلاً بعد وفاة جلال الدولة؛ فقد خلفه ابنه الملقب أبوكاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة الذى استطاع أن يستولى على السلطة ببغداد سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م، وبعد وفاته فى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م خلفه ابنه أبونصر الملقب بالملك الرحيم، وكان ذلك آخر سلاطين البويهيين فى العراق، فقد أسقطه السلاجقة سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م.

لعله يتضح من هذا العرض السريع مدى اضطراب أحوال البويهيين بعد وفاة عضد الدولة، ويمكننا القول أن دولة البويهيين اكتسبت نفوذها الحقيقى فى العراق على يد مؤسسها هناك معزالدولة، ثم على يد عضدالدولة، وقد سبق أن ذكرنا أن هذه الدولة لم تكن تنظر إلى الخليفة العباسى نظرةَ التقدير، ففقدت الخلافة هيبتها ومكانتها تحت نفوذ البويهيين، كما أن تعصب هؤلاء للمذهب الشيعى أوغر صدور أهل السُّنَّة فى العراق، فتعددت الاصطدامات بين السُّنَّة والشيعة وكثرت الاضطرابات.

(١) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٤٢.

وإبان فترة التدهور التى مرت بها دولة البويهيين، كانت هناك بذور دولةٍ فتيةٍ تتخلق فى خراسان وما وراء النهر، هى دولة الأتراك السلاجقة الذين برزوا على مسرح الأحداث فى حوالى سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م، واستطاعوا أن يقضوا على نفوذ الدولتين الغزنوية والبويهية[١]، وقد كان صعود نجمهم بالإضافة إلى اعتناقهم المذهب السُّنِّى سبباً فى أن يرحب بهم الخليفة العباسى القائم بالله عندما تطلعوا إلى التقدم نحو العراق لتخليص الخلافة من قبضة البويهيين الشيعة وانحرافهم.

الدولة السلجوقية : (٤٤٧-٥٩٠هـ/١٠٥٥م-١١٩٣م):

السلاجقةُ أسرةٌ تركيةٌ كبيرةٌ من تلك الأسرِ التى استوطنت بلاد تركستان إلى الشرق من البلاد الإسلامية، وهى تنتسب إلى زعيمه سلجوق، وقد هاجرت هذه الأسرة بقيادة سلجوق إلى بلاد خراسان فى أوائل القرن الخامس الهجرى، وكان النفوذ السائد فى تلك البلاد فى ذلك الوقت هو نفوذ الغزنويين، وبعد سلسلة من الصراع على النفوذ بين الغزنويين والسلاجقة استطاع السلاجقة أن يُنْزِلُوا هزيمةً ساحقةً بجيوشِ السلطان مسعود الغزنوى عند «مرو» سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤١م، فاضطر الغزنويون إلى التقهقر داخل حدود الهند[٢].

السلاطين العظام:

طغرل بك (٤٣٢-٤٤٥هـ / ١٠٣٧-١٠٦٣م):

وجد السلاجقة فى المراحل الأولى لظهور قوتهم زعيماً فذاً استطاع المضى بانتصاراتهم قدماً وتأسيس دولتهم، وذلك هو طغرل بك (محمد بن ميكائيل) فبعد هزيمة الغزنويين فى سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤١م، تمكن طغرل بك من إعلان قيام دولة السلاجقة فى خراسان وبلاد ما وراء النهر، ولا شك أن اعتناق هؤلاء الأتراك المسلمين للمذهب السنى كان عنصراً هاماً من عناصر توطيد سلطانهم الرسمى بعد وقتٍ غير طويل، فقد اتصل طغرل بك بالخليفة العباسى «القائم» يعلن له

(١) أسس الغزنويون دولتهم فى أفغانستان والبنجاب فى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى، ثم استولت دولتهم على أجزاء كبيرة من الهند وخراسان وفارس . وأشهر سلاطينهم محمود بن سبكتكين وكانت عاصمتهم «غزنة» فى شمال الهند واليها ينتسبون.

(٢) عبدالمنعم حسانين: سلاجقة إيران والعراق، ص٢١.

الولاء والتبعية، فما كان من الخليفة إلا أن أرسل إليه يُعَيِّنُه نائباً عنه فى خراسان وبلاد ما وراء النهر وفى كل ما يفتتحه بعد ذلك من البلاد، وهكذا أضفى السلاجقة على وجودهم مظهراً شرعياً ساعدهم على إرساء دعائم دولتهم عسكرياً وسياسياً وعلى كسب مزيد من الأنصار(١).

ثم جاءت الخطوة التالية التى كان لها آثاراً بعيدة المدى على مسرح التاريخ الإسلامى؛ فقد كان البويهيون فى العراق يزدادون ضعفاً وإنقساماً، وكانت الفتن بين السُّنَّة والشيعة يضطرم لهيبها، وتزداد حدة بتعصب البويهيين للشيعة، وقد استغل هذه الظروف المضطربة أحد القادة الأتراك التابعين للسلطان البويهى «الملك الرحيم»، فأعلن تحديه للخليفة وللسلطان البويهى معاً، وحاول أن يجعل بغداد تابعة للخليفة الفاطمي المستنصر فى مصر، واسم هذا القائد التركى أبوالحارث أرسلان، وهو المعروف بالبساسيرى، وقد استفحل أمر البساسيرى فى بغداد ووقف الخليفة العباسى القائم عاجزاً أمام مشكلته، فاستنجد بطغرل بك الذى خَفَّ لنجدته مسروراً بهذا التشريف من الخليفة السُّنِّى ، وتقدم طغرل بك بجيوشه صوب بغداد فدخلها فى سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م، «فاستقبله الخليفة القائم بحفاوةٍ بالغةٍ، ولقبه بـ «ملك الشرق والغرب»، وهرب البساسيرى من بغداد بوصول طغرل بك إليها، كما أن آخر سلاطين البويهيين «الملك الرحيم» حُمل أسيراً إلى الرى، حيث سُجن هناك، وبعد أن اطمأن طغرل بك إلى استتباب الأمر فى بغداد رجع إلى مقر مملكته بخراسان(٢).

ولكن البساسيرى لم يستسلم بسهولة؛ فقد كاتب «المستنصر صاحب مصر ومشت الرسل بينهما»، واتصل بغيره من أعداء الخليفة، بل أنه أغرى «إبراهيم يَنَّال» - وهو أخو طغرل بك لأمه - أن ينشق على أخيه، فاستطاع البساسيرى بذلك أن يضمن انشغال طغرل بك عنه بفتنة أخيه، ثم إن العون الذى تلقاه هذا الثائر من المستنصر الفاطمى مَكَّنَهُ من أن يدعم مركزه وأن يُمْعِنُ فى عصيانه. يقول بعض المؤرخين: «إن الذى وصل إلى البساسيرى من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك، وخمسمائة قرش وعشرة آلاف قوس، ومن السيوف ألوف، ومن الرماح والنشاب شئ كثير»(٣).

---

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٩، ص ١٧٦-١٧٩.

(٢) الراوندى: راحة الصدور، ص١٨٥.

(٣) بوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥، ص١١-١٢.

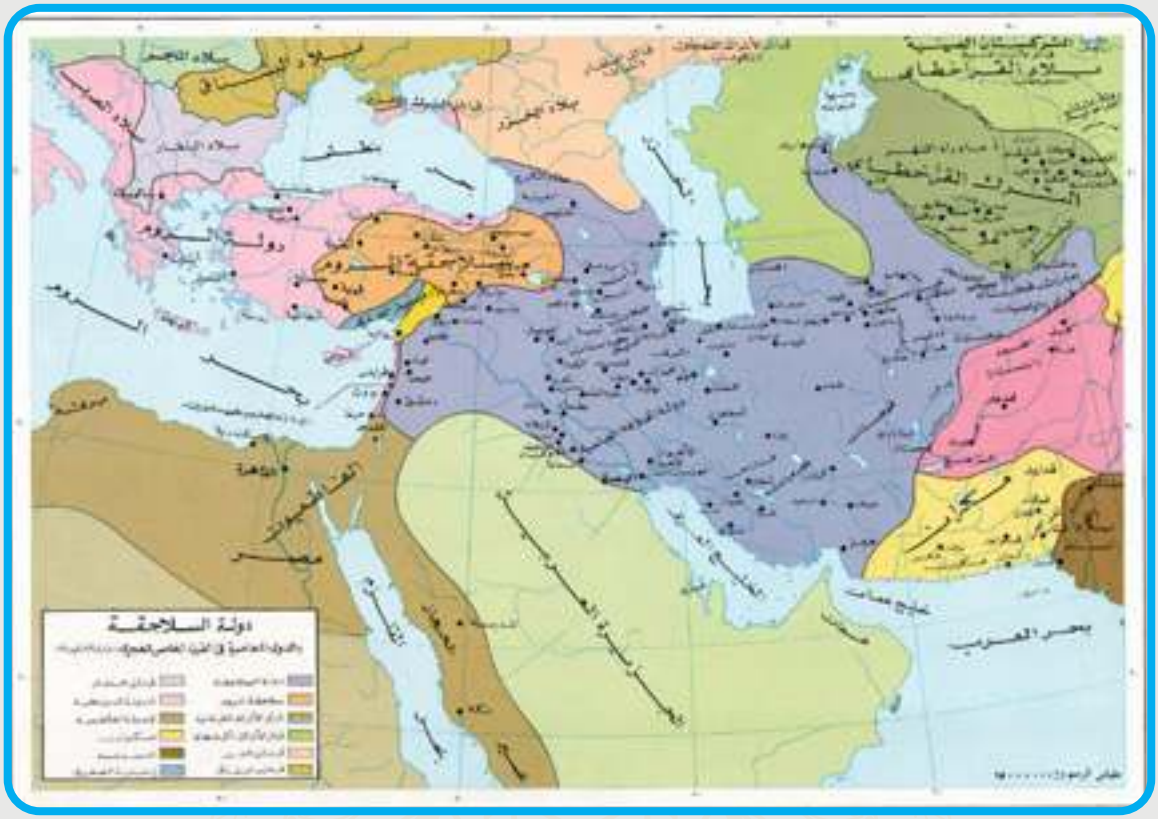

شكل (٤٥) الدولة السلجوقية

وقد استطاع البساسيرى بعد أن قَوِيَ نفوذه أن يدخل بغداد بجيوشه فى الثامن من ذى القعدة سنة ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م، وأن يقيم الخطبة بعاصمة الخلافة العباسية للمستنصر الفاطمى، وذلك يوم الجمعة ١٣ من ذى القعدة من نفس العام، وقد قبض البساسيرى على وزير الخليفة القائم، وهو رئيس الرؤساء أبوالقاسم بن السلمة وقتله بعد أن أذاقه صنوف العذاب، ثم جمع القضاة وأشراف بغداد وأخذ عليهم البيعة للخليفة الفاطمى، أما الخليفة القائم فقد استجار بأحد الأمراء الذين تحالفوا مع البساسيرى، واسمه قريش بن بدران أمير بنى عقيل فأجاره، وبهذا نجا الخليفة من القتل.

وفى تلك الأثناء تمكن طغرل بك من هزيمة أخيه «إبراهيم يَنَّال» وقتله فاستطاع أن يوجه جهوده نحو البساسيرى، وأن يلبى بذلك نداء الخليفة القائم، الذى ذهبت حاشيته إلى طغرل بك تستغيث به بعد أن سقطت بغداد فى يد هذا الثائر، ولم تصمد جيوش البساسيرى طويلاً أمام زحف طغرل بك، فقد تعرضت لهزيمةٍ ساحقةٍ تُوِّجَت بالقبض على البساسيرى وقتله شر قتلة فى أواخر سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٦م، فانتهت بذلك هذه الفتنة الهوجاء، وعاد الخليفة العباسى القائم إلى بغداد فى ظل الحماية السلجوقية، ومنذ ذلك التاريخ بدأ النفوذ العملى الحقيقى للسلاجقة فى مقر الخلافة[١].

ولقد كان خضوع الخلافة لنفوذ الأتراك السلاجقة بدايةً لمرحلةٍ متميزةٍ فى تاريخها؛ فالسلاجقة - كما قلنا - كانوا من أنصار المذهب السِّنّي، على عكس أسلافهم البويهيين الذى كانوا يختلفون عن أسلافهم الأتراك السنيين الذين استكثر منهم المعتصم، ثم تحولوا بعد ذلك إلى كابوس يُجثم على صدر الخلافة؛ ذلك أن السلاجقة كانوا يرون فى الخلافةِ السُّنِّيةِ رمزاً دينياً يُعبر عن الوحدة الإسلامية الصحيحة، وينظرون إلى الخليفة على أنه تجسيدٌ حيٌ لذلك الرمز، ولهذا أحاطوه بهالةٍ من التقدير والإكبار، وهكذا نعمت الخلافة العباسية بشيئين لم تنعم بهما مجتمعين فى ظل نفوذ الأتراك البويهيين: أولهما هو سيادة المذهب السُّنِّى فى أرض الخلافة؛ وثانيهما هو إحاطة الخلافة بما هى أهلٌ له من صيانةٍ وإجلالٍ.

وعن ذلك فلابد أن نشير إلى أن سلطة الخليفة فى العصر السلجوقى كانت روحية أكثر منها سياسية؛ فقد أدار السلاجقة دفة السياسة الداخلية والخارجية للدولة، وقنع الخلفاء بصفةٍ عامة بممارسة الأدوار التى كانت تُرسم لهم، فى الوقت الذى نعموا فيه بزوال شبح الخلع والسمل والقتل الذى سلبهم الأمن والطمأنينة فيما مضى.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص٢٨.

ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ / ١٠٦٣-١٠٧٢م):

لما وُلِّيَ ألب أرسلان السلطنة، ودخل الري مع وزيره نظام الملك، واستقبله الكندري - وزير طغرل - أحسن استقبال، وقدم له الهدايا، وهنأه بالسلطنة، ولكن نظام الملك خشي أن تظل الوزارة من نصيب الكندري- وكان يتطلع إليها - وساءه أيضاً إلتفاف الجند والناس حول الكندري، لذا دبر مؤامرة للتخلص منه حتي يئول إليه نفوذه وسلطانه، فحرض ألب أرسلان علي غريمه – الكندري – وحذره منه، فأوجس ألب أرسلان خيفة من الكندري، بل أمر بالقبض عليه، وقُتِلَ قَتْلَةً شنيعة، وقبل أن يُقتل الكندري أَرسَل رسالتين، الأولي إلي ألب أرسلان، والثانية إلي نظام الملك، جاء في الأولي للسلطان: «لقد خدمتني خدمةً جليلةً، فقد أعطاني عَمُّكَ مُلكَ العالَم الدنيوي لأتصرف فيه، فلما أمرت بقتلي أعطيتني مُلْكَ العالَم الآخر جزاءً لاستشهادي، وبذلك تم لي علي يديكما امتلاك الدارين الفانية والباقية». وفي الرسالة التي بعثها إلي نظام الملك حذره من العواقب الوخيمة التي ستعود علي الدولة من جراء قتل الوزراء، وأول من سيشرب من نفس الكأس- بعد الكندري- نظام الملك. قال الكندري لنظام الملك: «بئسما عَوَّدت الأتراك قتل الوزراء وأصحاب الديوان، ومن حَفَرَ لأخيه حُفرة وقع فيها، ولقد تجاوز هذا الوزير السيئ الطالع الأربعين من عمره حين مقتله، وكان عالِماً بالدين، ونَظَمَ قصائدَ شعريةٍ رائعةٍ، ومن المتعصبين للمذهب الشافعي، وناصب العداء للرافضة والأشاعرة، وأمر بلعنهم في المساجد، وتحقق لنظام الملك ما كان يسعي إليه، فولاه السلطان ألب أرسلان وزارة الدولة السلجوقية.حَرِصَ السلطان ألب أرسلان على المحافظة علي ممتلكات الدولة السلجوقية(١)؛ وتوسيع رقعة أراضيها، فلما وُلي السلطنة شق أمير ختلان عصا الطاعة، ومنع ما كان يؤديه من مال إلي الحكومة السلجوقية، فعمل ألب أرسلان علي سحق تمرده، فسار إليه علي رأس حملةٍ حربيةٍ، ولما بلغ ختلان، تَحَصَّنَ أميرها في القلعة، وهاجم السلطان السلجوقي القلعة، وشَدَّدَ عليها الحصار حتي استسلم أمير ختلان، وعادت هذه الولاية إلي الولاء والطاعة للسلطان السلجوقي. ولم تنته متاعب ألب أرسلان عند هذا الحد، بل سار إلي صغانيان التي حذت حذو ختلان في التمرد والعصيان، وحاول أميرها الاستقلال عن الحكم السلجوقي، واستطاع ألب أرسلان إعادة صغانيان إلي الولاء

(١) الراوندى: راحة الصدور، ص ١٨٥-١٨٦.

والطاعة، وقد توطد نفوذ ألب أرسلان في دولته بعد أن دحض كل هذه المحاولات الانفصالية، ولم يلبث أن ازداد نفوذه بعد أن اعترف الخليفة العباسي به سلطانا، وأرسل إليه التقليد والخلع بمشهد من الناس، وبذلك اكتسب حُكْمَه الصفة الشرعية[١].

ولم يواجه ألب أرسلان حركات العصيان من ولاته فقط، بل واجه مصاعب من أفراد أسرته، ومن ذلك أن شهاب الدولة قتلمش تطلع إلي الوصول إلي عرش السلطنة، فأَعَدَّ العُدَّة لقهر هذه الحركة، وسار لملاقاة غريمه، ولما اقترب منه أرسل إليه ينكر عليه فعله وينهاه عن العصيان ويدعوه إلي الطاعة، وأبدي استعداده للعفو عنه، لأنه يراعي له القرابة والرحم، لكن قتلمش لم يستجب لنداء السلطان، فقد اغتر بكثرة جمعه، وأطلق لجنده العنان، فنهبوا قري الري[٢]، ولذلك لم يعد هناك بد من الحرب والقتال، ومهما يكن من أمر، فقد التقي الجمعان في معركةٍ دارت فيها الدائرة علي قتلمش وجنده، بل وقُتِل في المعركة وبذلك عادت إلي الدولة السلجوقية وحدتها، وقوي مركز سلطانها، كذلك أحبط السلطان ألب أرسلان محاولة عمه بيغو للاستقلال بإقليم هراة سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م، وطَهَّرَ هذه البلاد من الثوار، وأعاد الأمن والنظام في جميع أنحاء خراسان وبلاد ما وراء النهر.

اتخذ ألب أرسلان بعد أن استتب له الأمر في دولته سياسة تنطوي علي توسيع رقعة أراضيها، وذلك ببسط النفوذ السلجوقي علي بلدان الدولة الفاطمية في مصر والشام، والسيطرة علي البلاد المسيحية المجاورة، ونَشْرِ الإسلام في غير بلاد الإسلام.

بدأ ألب أرسلان يقترب من النزاع فى الأقاليم المسيحية المجاورة لدولته، واتجه صوب الغرب بفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم، وكان أهل هذه البلاد يكثرون من الإغارة علي إقليم أذربيجان حتي أصبحوا مصدر قلق لسكانه، الأمر الذي شجع السلطان السلجوقي علي سرعة العمل علي كبح جماح هؤلاء القوم، والسيطرة علي بلادهم المجاورة للدولة البيزنطية.

---

(١) الحسينى: أخبار الدولة السلجوقية، ص١٤.

(٢) حسين أمين: تاريخ العراق فى العصر السلجوقى، ص٢١٩.

بدأ ألب أرسلان حركته الحربية بالاستيلاء على الجزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرة وان وأرمينية، كما سيطر على جورجيا وبلاد الأرمن، وقد أزعج ذلك أمبرطور الروم رومانوس ديوجينس، وأدرك ان التوسع السلجوقي لا يقف عند حدٍ، بل يُشكل خطراً على دولته، فاعتزم تحويل أنظار السلاجقة عن بلاده، فسار إلي بلاد الشام في عسكرٍ كثيف، وأغار على مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها، وهزم صاحبها محمود بن صالح بن مرادس ومن معهم من جموع العرب، وعاد إلي القسطنطينية(١).

ولما رأى صالح فرادس - أمير حلب - قوة الدولة السلجوقية، عمل على الدخول في طاعة السلطان السلجوقي، فجمع أهل حلب وقال: «هذه دولةٌ جديدةٌ، ومملكةٌ شديدةٌ، وهم يَسْتَحِلُّونَ دماءكم لأجل مذاهبكم، والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قوة ولا بذل». فاستجاب الحاضرون لدعوته، وأقيمت الخطبة في حلب للخليفة العباسي القائم بأمرالله، والسلطان السلجوقي، وسار ألب أرسلان إلي حلب، وأدخلها في حوزته، وبذلك آلت إلى الخلافة العباسية بعد أن كانت تابعة للدولة الفاطمية.

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج٤، ص٢٥٨-٢٥٩.

شكل (٤٦) أقصى مدى لدولة السلاجقة الأتراك

رأى رومانوس الرابع - إمبراطور الدولة البيزنطية - أن الدولة السلجوقية تهدد أمن بلاده، فعمل علي إضعافها، وأوقف خطتها التوسعية علي حساب أراضيها، فغادر رومانوس القسطنطينية علي رأس جيش يتكون من مائتي ألف مقاتل من الروم والفرنجة والروس والكرج والصرب والقوقاز وغيرهم من شعوب دولته، فجاءوا في تجملٍ كثيرٍ وزيٍ عظيمٍ، وسار إمبراطور الروم علي رأس جيشه إلي ملازكرد - من أعمال خلاط - ولما عَلِمَ ألب أرسلان بذلك أعد جيشاً قوياً، وسار مسرعاً للقاء العدو، وقال وهو يُجِدُّ في السير: «إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالي، وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي». وواصل المسير بجيشه حتي اقترب من الجيش البيزنطي، ولما لاحظ السلطان ألب أرسلان أن قوة الروم تفوق قوته واستعداداته، دعا الإمبرطور إلي عقد هدنة حتي يستطيع إعادة تنظيم قواته وتقويتها، لكن الإمبراطور رفض الهدنة، وقال: لا هدنة إلا في الري، لذلك رأى السلطان السلجوقي أن الحرب أمرٌ لا مفر منه، وأثار حماس جنده، ووقعت الواقعة بين الفريقين في ٤٦٣هـ / ١٠٧١م، وكانت معركةً حاميةَ الوطيس، انتهت بانتصار المسلمين على أعدائهم، ومزقوهم شر ممزق، فقتلوا فيهم كيف شاءوا، حتي امتلأت أرض المعركة بجثث قتلي الروم، ووقع الإمبراطور البيزنطي أسيراً في أيدي السلاجقة[1]، وسيق إلي معسكر السلطان السجلوقي ألب أرسلان. فقال له السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أَسَرْتَنِي؟ فقال: أفعل القبيح. فقال له السلطان: فما تظن أني أفعل بك؟ قال: إما ان تقتلني، وإما أن تشهرني في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال، واصطناعي نائباً عنك. قال السلطان السلجوقي: ما عزمت على غير هذا. أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الإمبراطور البيزنطي بعد أن تعهد بدفعِ ديةٍ كبيرةٍ قدرها ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عسكر الروم في أى وقت يطلبه، وأن يطلق كل أسير مسلم في أرض الروم. وعُقدت معاهدةٌ مدتها خمسون عاماً بين الفريقين، وأُفرج عن رومانوس، وعاد إلي بلاده مذموماً مدحوراً.

وكان لموقعة ملازكرد أهميةً كبيرةً في التاريخ الإسلامي بصفةٍ خاصة، وتاريخ العالَم بصفةٍ عامة، فقد نجم عن هذه الواقعة تأسيس دولة سلجوقية في أرض

(١) حسين أمين: تاريخ العراق فى العصر السلجوقى، ص١٦٦ .

الروم في لآسيا الصغرى، وقد أدى ضياع هذه البلاد من الدولة البيزنطية إلي ضعفها وتدهورها حتي سقطت في النهاية علي أيدي السلطان العثماني محمد الفاتح.

كما كان لهذه الواقعة آثاراً حضاريةً بالغةَ الأهيمة، ذلك أن الثقافة المسيحية غلبت على سكان آسيا الصغري، وامتدت منها إلي حدود أذربيجان، فلما انسحب الروم من هذه البلاد، ودخلت في حوزة السلاجقة، حلت الثقافة الإسلامية محل الثقافة المسيحية، وانتشر الإسلام في هذه البلاد، وانتشرت اللغتان العربية والفارسية فيها، لأن العربية لغة القرآن، والفارسية لغة الفاتحين، وقد مَهد انتشارها لظهور اللغة التركية الحديثة بعد ذلك.

وضعفت الدولة البيزنطية علي إثر هذه الموقعة، ولم يَعُدْ لها دورٌ في حماية المسيحية من ضغط الإسلام، وفي حراسة الباب الشرقي لأوربا من غزو الآسيويين، وبذلك لم يَعُدْ الغرب الأوربي يعتمد علي البيزنطيين في هذا الدور، إنما كان عليه أن يعتمد علي قوته وحدها، وعلي ذلك مهدت موقعة ملازكرد للحملة الصليبية المعروفة بالأولي بعد أن أصبحت المسيحية في خطرٍ بسبب إزدياد قوة السلاجقة وضعف الدولة البيزنطية.

ومهما يكن من أمرٍ فقد أعاد السلطان ألب أرسلان غريمه وأسيره الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع إلي بلاده، بل خلع عليه خلعةً جليلةً، وخصص له سرادقاً كبيراً، وأعطاه قدراً كبيراً من المال لينفق منه في سفره، ثم أَفْرَجَ عن عددٍ من ضباطه ليقوموا بخدمته، وأمر عدداً من رجاله بصحبته حتي يصل إلي دياره سالماً، ولم تكد تصل أخبار هذه الهزيمة إلي القسطنطينية حتي أزال رعاياه اسمه من سجلات المُلك، وقالوا: إنه سقط من عداد الملوك، وغضب عليه المسيح، وأعلن ميخائيل السابع إمبراطوراً، وألقي القبض علي رومانوس الرابع، وسُلِّمَت عيناه.

على أن السلطان ألب أرسلان لم يستغل هذا النصر العظيم في محاولة الإستيلاء علي بقية آسيا الصغري التي أصبحت ممهدةً له بعد ملازكرد، وإنما اكتفى بإدخال أرمينية وأنطاكية والرها في حوزته، واتجه إلى الأطراف الشرقية من دولته لإخضاع بلاد ما وراء النهر، وهاجم ألب أرسلان إحدي القلاع الثائرة، وأخمد ثورتها، وقبض جُندُه علي قائدها يوسف الخوارزمي، وقد اعتزم السلطان

السلجوقي قتله بنفسه؛ لأنه أظهر عناداً وإصراراً علي التمرد، وتسبب في قتل الكثير من جنده، ورماه السلطان بسهم فأخطأه، ولم يكن يخطئ سهمه، وأخرج يوسف سهماً أخفاه في ملابسه، فلقى السلطان مصرعه بسببه.

وبذلك انتهي حكم السلطان ألب أرسلان الذي استمر تسع سنين وستة أشهر، وقد حَكَمَ مملكةً تمتد من نهر جيحون حتي نهر دجلة، ويُعَدُّ عهده من أهم عهود السلاطين السلاجقة، فقد استتب فيه الأمن وحسنت إدارة الدولة، واتسعت رقعتها، وقهر أعداؤها حتي أنها كانت مهابة مرهوبة الجانب، ويذكر ابن الأثير أن ألب أرسلان كان يُكثر من الصدقات علي المحتاجين من رعيته، وقد قنع من الأهالي بالضريبة الشرعية تؤخذ منهم كل سنة دفعتين، وقد اهتم بدراسة أخبار الملوك الماضين، وكانت سياساتهم عبرةً وعظةً له.

ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م) :

واجه ملكشاه صِعاباً كثيرة في بداية حكمه، بسبب انتفاض بعض الولايات ومحاولة الانفصال عن الدولة السلجوقية، لكن ملكشاه أحبط كل المحاولات الإنفصالية، ولم يكد ملكشاه ينتهي من دحض هذه الثورات، حتى واجه حركةً أخرى قام بها عمه قاروت بك مطالباً بالسلطنة، وكان بكرمان وقت وفاة أخيه ألب أرسلان، وسار طالباً الري - حاضرة السلطنة السلجوقية –

فعمل ملكشاه على دحض هذه الحركة الخطيرة، فأصطحب وزيره نظام الملك، وتوجها إلي همذان للقاء قاروت بك، وقمع حركة تمرده، وكان الجند يميلون إلي قاروت بك، ودرات معركةً رهيبةً بين الفريقين، انضم فيها شرف الدولة مسلم بن قريش، وبهاء الدولة منصور بن دبيس بن مزيد ومن معهما من العرب والأكراد إلي السلطان السلجوقي، وانتهت المعركة بهزيمة قاروت بك، وَصَفَت السلطنة لملكشاه، ولم يعد ينازعه فيها منازع، ودانت له الولايات السلجوقية بالولاء والطاعة، أما قاروت بك فقد سيق أسيراً إلي السطان ملكشاه، فأمر بقتله تخلصاً من شره وعقاباً له علي موقفه العدائي نحوه، وأقر كرمان بيد أولاده، ومنح العرب والأكراد - الذين اشتركوا معه في المعركة – الإقطاعات الكثيرة.

شكل (٤٧) معركة ملاذكرد

غير أن الدولة السلجوقية تعرضت لأحداثِ شغبٍ من الجند، إذ انطلقوا في البلاد يعثون فيها نهباً وفساداً، ويخربون ويدمرون، ففوض السلطان ملكشاه وزيره نظام الملك إليك، فأنت الوالد، وزاد في إقطاعه، وخلع عليه، ولقبه عدة ألقاب من بينها لقب أتابك أى الأمير الوالد، وكان ملكشاه جديراً بهذه الثقة، فأعاد إلي البلاد الأمن والطمأنينة(١).

كانت بلاد ما وراء النهر كثيرة القلاقل والاضطرابات في عهد السلطان ألب أرسلان، فلما شق خاقان ألتكين - صاحب سمرقند- عصا الطاعة، وأغار علي ترمذ، وضمها إلي حوزته، منتهزاً فرصة الاضطرابات التي أعقبت ذلك، وانشغال السلطان الجديد ملكشاه في القضاء علي الصعاب التي واجهته، ولما استوثق الأمر للسلطان الجديد، سار إلي ترمذ وحاصرها وشدد عليها الحصار، ولما رأى جند ترمذ أن لا طاقة لهم بجند السلاجقة، طلبوا من السطان العفو والصفح، فَأَمَّنَهُم وعفا عنهم، واستعادها ملكشاه، ثم صار إلي سمرقند، فأسقط في يد صاحبها، فغادرها وأرسل يطلب من السلطان الصلح، وتضرع في ذلك إلي نظام الملك، وأجيب إلي طلبه، وعقد ملكشاه معه صلحاً، وأقره علي سمرقند.

واصل ملكشاه سياسة أبيه ألب أرسلان في العمل علي توسيع رقعة الدولة السلجوقية بحيث تسيطر علي العالَم الإسلامي كله، بما في ذلك الدولة الفاطمية المتداعية، فأرسل جيشا إلي بلاد الشام سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م، واستولى على أكثرها، ثم أرسل جيشاً إلي مصر، وأوغل في الأراضي المصرية، لكن الفاطميين بذلوا قصارى جهدهم في درء الخطر السلجوقي عن مصر، وفعلاً هزموا السلاجقة وطردوهم من البلاد المصرية، لذلك توقف السلاجقة بعد ذلك عن فكرة غزو مصر(٢).

تطلع ملكشاه إلي تأكيد سيطرته علي بلاد الشام، فأقطعها لأخيه تاج الدولة تتش في سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م وما يفتحه في تلك النواحي، فقصد تتش حلب وحاصرها، ولحق بأهلها مجاعةً شديدةً بسبب الحصار، على أن تتش اضطر إلي رفع الحصار بعد أن تعرضت القوات السلجوقية في دمشق لهجمات القوات الفاطمية، وسار تتش إلي دمشق لنجدته، واستطاع مطاردة الجند الفاطمي، واستعاد السيطرة السلجوقية

(١) مصطفى جواد: العصر العباسى، ص٧٠.

(٢) ابن الطقطقى: الفخرى فى الآداب السلطانية، ص٢٦٠ ، ٣٢٢.

عليها، ولما رحل تاج الدولة تتش عن حلب، وخشي أهلها أن يعود إلي مهاجمتهم، استنجدوا بشرف الدولة مسلم العقيلي- صاحب الموصل - ليسلموها اليه، ودخل الأمير العقيلي حلب سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م، وأخضع المعارضين لحكمه، وأرسل إلي السلطان السلجوقي يطلب إقراره على حلب، فوافق علي طلبه، وأقطعها له، وبذلك إنضمت معظم سورية إلي الدولة السلجوقية، واتخذ تتش دمشق مقراً لدولة سلاجقة الشام.

شكل (٤٨) ملكشاه

حَرِصَ السلطان ملكشاه على توطيد نفوذ السلاجقة في آسيا الصغري، وهو بذلك يواصل سياسة أبيه التي تدعو إلي مواجهة الدولة البيزنطية، وانتزاع أراضيها جهاداً في سبيل الله، ففي سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م أُسْنِدَ إلي سليمان بن قتلمش بن إسرائيل حُكم هذه البلاد، ويعتبر قتلمش المؤسس الحقيقي لدولة سلاجقة الروم في آسيا الصغري التي ظلت تحكم هذه البلاد حتي سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م.

لم يكتف قتلمش بحُكم بلاد آسيا الصغري، بل سعى إلى توسيع رقعة ولايته واتجه إلي أنطاكية - وكانت بيد الروم - وساعده علي ذلك إستياء أهلها من الحكم البيزنطي، وأرسلوا قتلمش سراً، وطلبوا منه التوجه إلي بلدهم وامتلاكها، فأبحر علي رأس حملةٍ كبيرةٍ إلي أنطاكية، وأوغل جنده في جبالٍ وعرةٍ ومضايق غلقه حتى وصل اليها، وهاجم أنطاكية، وشدد هجماته عليها حتي فتحها، وغنم مغانم كثيرة، واستولي علي البلدة، وأحسن إلي الرعية، وعدل فيهم، وأعاد تعمير أنطاكية، وبفتح السلاجقة لأنطاكية، أطلت دولتهم علي البحر المتوسط.

على أن إتساع رقعة الولاية السلجوقية في آسيا الصغري ومجاورتها لولاية الشام السلجوقية، أدي إلى ظهور نزاعٍ مريرٍ بين حكام هاتين الولايتين، ذلك أن قتلمش لم يكتفِ بحكم أنطاكية، بل تطلّع إلى السيطرة على حلب، فهاجمها ودارت حربٌ بينه وبين أميرها شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي، انتهت بمقتل الأمير العربي، وسيطرة قتلمش على حلب أدى إلى وقوع صدامٍ بينه وبين تتش - الذي كانت حلب تابعةً لولايته - ورأى ضرورة استعادتها، واشتبك الأميران في معركةٍ انتهت بهزيمة قتلمش ومقتله، وحاصر تتش حلب، وأحبط مقاومة جند سلاجقة الروم، واسترد حلب[1].

رأى ملكشاه أن يقصد سورية لإعادة الهدوء والطمأنينة إلي حلب، وأخضع في طريقه القلاع الخارجة على سلطان الدولة، ومن بينها الرها، فحاصرها واستعادها من الروم، ثم استرد جعبر، وكان أصحابها يقطعون الطريق، ثم عَبَرَ بالقوات إلي مدينة حلب، وأقطعها لقسيم الدولة آقسنقر، فعمرها وأحسن السيرة في أهلها، ورأى بقية حكام المدن الشامية أن أمن بلادهم لا يتحقق ولا ينجو من الخطر إلا إذا انضموا إلي الدولة السلجوقية القوية، فأرسل أصحاب شيزر واللاذقية وكفر طاب وقامية وغيرهم إلى ملكشاه يقدمون له فروض الولاء والطاعة، فأَقَرَّهم علي ما بأيديهم من البلاد، كما أَقَرَّ حكم تتش في بلاد الشام، وعاد السلطان السلجوقي إلي بغداد بعد أن أخضع لسلطانه بلاد الشام والجزيرة، وخَلَعَ عليه الخليفة

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٤٠٥-٤٠٦.

العباسي الخُلع السلطانية، وفوض إليه أمر البلاد والعباد، وأمره بالعدل فيهم، وأقام السلطان السلجوقي بعض الوقت في بغداد، وتزوج تركان خاتون ابنة الخليفة العباسي سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م.

عادت بلاد ما وراء النهر من جديد إلي إثارة المتاعب في وجه السلطان ملكشاه، ذلك أن أحمد خان بن خضر- صاحب سمرقند - استبد بالأهلين، فكتبوا إلي السلطان سراً يستغيثون به، ويسألونه القدوم عليهم لينقذهم من الظلم والجور، ويستعيد نفوذه في هذه البلاد، فغادر ملكشاه أصفهان إلى خراسان، ومنها إلي بلاد ما وراء النهر، وقصد بخاري وامتلكها، كما امتلك ما جاورها من البلاد، ثم قصد سمرقند وحاصرها وشدد عليها الحصار حتى فتحها وعفا عن صاحبها، وعهد إلى أحد قواده بحكم سمرقند، ثم قصد كاشغر، وأرسل إلي ملكها يطلب منه الدخول في طاعته، فوافق الملك وحضر بين يديه معلناً ولاءه له، فأكرمه وأقره على كاشغر، وبذلك امتد نفوذ السلاجقة شرقاً وغرباً، وشمل المناطق الواقعة بين كاشغر في الشرق وأنطاكية في الغرب، أى امتد من حدود الهند شرقاً إلي البحر المتوسط غرباً، وانطوى تحت لواء السلاجقة إقليم ما وراء النهر وإيران وآسيا الصغري والعراق والشام.

بلغت الدولة أوج اتساعها وعظمتها في عهد السلطان ملكشاه، ومما لا شك فيه أن الفضلَ الكبيرَ في ذلك يرجع إلي وزيره نظام الملك الذي عُرف عنه الحكمة والرشاد، وقد بلغ نظام الملك من علو الهمة، وبُعْد الصيت ما بلغه البرامكة، وحلت به نكبة أشبه بنكبتهم، وكان نظام الملك من أبناء الدهاقين بطوس، زال ما كان لأبيه من مالٍ ومُلك، وتعلم العربية، وعلوم الدين، ثم تدرج في سلك الوظائف، وظهرت كفاءته وأمانته، حتي اتخذه ألب أرسلان وزيراً له، ثم فوضه ملكشاه أمر دولته كلها، وطوال تلك الفترة كان المحرك الحقيقي لسياسة الدولة، وضبط الأمور في هذه الدولة المترامية الأطراف، وأسفرت جهوده إلي جعل الدولة السلجوقية أكبر قوة في الشرق، ترهبها الأمم المجاورة، وتخشي بأسها.

ولم تستمر العلاقات الودية بين ملكشاه ووزيره نظام الملك، فدوام الحال من المحال، إذ ساءت هذه العلاقات لعدة عوامل منها ما يتعلق بولاية العهد، فقد رأى نظام الملك أن بركياروق - الابن الأكبر للسطان ملكشاه - أحق بولاية العهد من أخيه محمود ، ورفضت تركان خاتون - زوج السلطان ووالدة محمود – ذلك ، ورشحت ابنها محموداً لولاية العهد، وكان في الرابعة من عمره وأدي ذلك

إلي خلافاتٍ شديدةٍ بين نظام الملك وتركان خاتون، ولما كانت قوية التأثير على زوجها ملكشاه، فقد أفلحت في إثارة الخلافات بين الرَجُلَيْنِ[1].

وكان نظام الملك يَعْهَدُ بحكم ولايات الدولة السلجوقية إلى أبنائه وأحفاده وأقاربه، ويسند اليهم المناصب الرئيسية، وكان بعضهم غاشماً سيئ السيرة، ظالماً في الناس، فنال ذلك من سمعة الوزير السلجوقي، وكان أحد أحفاده يلي مرو فأساء إدارتها، واستبد بأهلها، فرفع الناس شكاياتهم إلى السلطان، فأرسل إلى نظام الملك يؤنبه، ويقبح تصرفه في تعيين هذا الشاب الطائش أو أقاربه عموماً ممن تنقصهم الخبرة وتعوزهم التجربة، واستاء الوزير- الذي تجاوز الثمانين عاماً - من رسالة السلطان السلجوقي الذي هو مدين له بما بلغته الدولة في عهده من قوةٍ وإزدهار، وعَبَّرَ عن غضبه برسالةٍ بعث بها إلى السلطان جاء فيها: «إن الذي وضع التاج على رأسك قد وضع القلنسوة على رأسي». ونتيجة لهذه الخلافات الشديدة أمر السطان بعزل وزيره.

على أن نظام الملك لم يلبث أن قُتِلَ بعد عزله في رمضان سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م بالقرب من نهاوند، فقد اغتاله شاب ديلمي، وهو داخلٌ إلى مخيمه من طائفة الاسماعيلية حين أرخي الليل سدوله، ذلك أن نظام الملك كان شديد العداء والتنكيل بهذه الطائفة، ولم يلبث ملكشاه أن توفي بعد مقتل وزيره بشهر واحد[2].

الصراع داخل البيت السلجوقى:

أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والانهيار بعد وفاة السلطان ملكشاه، ومن أهم أسباب هذا الضعف تنافس الأمراء السلاجقة حول الوصول إلي عرش السلطنة، الأمر الذي أحدث انقساماً شديداً بين أبناء البيت السلجوقي، وبدأت هذه الخلافات بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، بين بركياروق الابن الأكبر لملكشاه- وأخيه محمود، وأيد بركياروق نظام الملك ومن بعده أتباعه وأفراد أسرته وأساتذة وطلاب المدرسة النظامية، علي حين وقف إلي جانب محمود أمه تركان خاتون، والوزير تاج الملك الشيرازي- الذي خلف نظام الملك- وقد استطاعت تركان خاتون أن تحصل من الخليفة العباسي المقتدي بالله على تقليدٍ له بالسلطة، منتهزةُ فرصة وجودها في بغداد أثناء موت ملكشاه، وأودع أنصارها بركياروق في سجن أصفهان، غير أن أتباع المدرسة النظامية أخرجوه من السجن، ونادوا

(١) ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص٤٤٠؛ ابن السباعى: مختصر أخبار الخلفاء، ص١٠٩.

(٢) فاروق عمر: الخلافة العباسية فى العصور المتأخرة، ص٨٥، ٩٢١ .

به سلطاناً، وقتلوا الوزير تاج الملك الشيرازى لاتهامه بتدبير إغتيال نظام الملك، وأسندوا الوزارة إلي عزالملك الحسين بن نظام الملك.
على أن الأمور لم تستتب لبركياروق، فقد طالب عمه تتش- صاحب الشام- بالعرش، واستولى علي بلاد الجزيرة، وسار إلي أذربيجان، على أن بركياروق أوقع به الهزيمة، واعترف الخليفة العباسي به سلطاناً.

شكل (٤٩) بركياروق بن ملكشاه

لم يستسلم تتش للهزيمة، بل عاود محاربة ابن أخيه، وأعد العدة لذلك، لكنه لم يستطع التصدي لبركياروق الذي قوي بأسه، وعظم شأنه بعد وفاة أخيه محمود، وانتصر علي تتش بالقرب من الري سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م، وبذلك قضي بركياروق علي كل المحاولات التي استهدفت انتزاع السلطنة منه، ودانت له الدولة بالطاعة والولاء.

عاد الانقسام إلى البيت السلجوقي، بعد أن ثار محمد – أخو السلطان- عليه، وكان والياً علي أران وكنجه، وقصد همذان، على أن بركياروق لم يستطع التصدي له وإحباط تمرده بسبب ثورة الجند عليه، فقوي شأن محمد، وأعلن نفسه في همذان سلطاناً، ولم يلبث أن اعترف به الخليفة العباسي لما شَعَرَ بقوة بأسه ورجحان كفته، وبذلك أصبح في الدولة السلجوقية سلطانان.

استمر النزاع بين الإخوة بروكياروق ومحمد وسنجر، وتكررت الحروب بينهم، وكان الخليفة العباسي يقف من هذه الحروب موقف المتفرج، ينتظر نتيجة المعركة، ويقيم الخطبة لمن غلب، ودخل بغداد ظافراً منتصراً وقد إزداد ضعف الدولة السلجوقية بسبب هذا الإنقسام الشديد بين أمراء البيت الحاكم، وفي سنة ٤٩٧هـ / ١١٠٣م إتفق بركياروق ومحمد وسنجر على تقسيم المملكة بينهم، وتوفي بركياروق سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م، بعد أن ترك الدولة السلجوقية وقد مزقتها الإنقسامات، وسيطر كل أمير على ما تحت يده من البلاد(١).

ولم يستطع السلطان محمد - الذي انفرد بالسلطنة بعد وفاة أخيه - أن يعيدَ إلى الدولة وحدتها في وقتٍ اشتد فيه خطر الإسماعيلية، وبدأت الحروب الصليبية بوفاته سنة ٥١١هـ / ١١١٧م، واشتد النزاع وعاد من جديد حول العرش، ذلك أن محمود - الذي خَلَفَ أباه - لم يعترف به عمه سنجر- صاحب خراسان وما وراء النهر- بل أعلن نفسه سلطاناً، وبذلك أصبح للدولة- كما كان الحال من قبل – سلطانان.

علي أن أمر سنجر لم يستقر في بلاد ما وراء النهر وخراسان، ذلك أن الخوارزميين أقاموا ملكهم علي حساب دولته، واشتبكوا مع سنجر في عدة حروب أنهكت قواه، ومن ناحيةٍ أخري تكرر النزاع بين الأمراء السلاجقة، وتطلع كل منهم إلي

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، ص٢٢٩، ٢٣٣..

الوصول إلي السلطنة، الأمر الذي أدى إلى وقوع اشتباكاتٍ بينهم، وهكذا أصبحت الدولة السلجوقية منذ أواخر القرن الخامس الهجري مسرحاً للحروب الداخلية، في الوقت الذي أحدق بها الأعداء من كل جانب[1].

كما ازداد نفوذ الخوارزميين في الشرق الإسلامي في عهد السلطان تتش، وقَرَّبَه الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وعهد إليه بتخليصه من كابوس السلاجقة الذي قاسي منه العباسيون سنين عدداً، وقد لقيت هذه الدعوة إستجابةً من السلطان الخوارزمي، إذ تهيأت له الفرصة لمد نفوذه غرباً ، وتقوية صلته بدولة الخلافة والسيطرة عليها بدلاً من السلاجقة، وبذلك يكتسب الخوارزميون مركزاً سياسياً مرموقاً في عالَم الإسلام، ومهما يكن من أمرٍ فقد سار تتش إلي الري سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، واشتبك مع طغرل - آخر السلاطين السلاجقة -، وانتصر عليه، وخر السلطان السلجوقي صريعاً، في ميدان القتال؛ وأرسل تتش رأسه إلي بغداد، وسيطر الخوارزميون علي أملاك السلاجقة في الشرق، وبذلك زالت الدولة السلجوقية.

شكل (٥٠)اشتباك تتش مع طغرل آخر ملوك السلاجقة

(١) الفاروق عمر: الحركة الشعوبية، بغداد، ١٩٨٦م، ص١٣٤.

تدريبات الفصل الرابع

حدد صواب أو خطأ العبارة التالية:

(١) كان ألبتكين من الموالي الأتراك الذين لهم منزلة كبيرة عند السامانيين:

- ○ صواب
- ○ خطأ

(٢) استطاع مودود الغزنوي هزيمة الأمير ألب أرسلان بن داوود السلجوقي:

- ○ صواب
- ○ خطأ

(٣) الخليفة المستكفي هو آخر خلفاء عصر نفوذ الأتراك:

- ○ صواب
- ○ خطأ

اختر الإجابة الصحيحة مما يلي:

(٤) حارب أخيه وانتصر عليه ثم أنهى الدولة السامانية:

- ○ مودود بن مسعود
- ○ محمود الغزنوي
- ○ مسعود الأول

(٥) ذهب أحمد بن طولون إلى مصر نائبًا عن واليها في عهد:

- ○ الخليفة المعتز
- ○ المهتدي بالله
- ○ محمد المنتصر

(٦) انتهت فترة «صحوة الخلافة» بوفاة الخليفة:

- ○ المعتضد
- ○ المعتمد على الله
- ○ المهتدي بالله

الفصل الخامس

الغزو المغولي وسقوط الخلافة العباسية

الفصل الخامس
الغزو المغولي وسقوط الدولة العباسية

الأهداف:

عزيزي الطالب .. بعد الإنتهاء من دراسة هذا الفصل ينبغي عليك أن تكون قادرًا على أن:

(١) تشرح أثر الغزو المغولي على سقوط الدولة العباسية.
(٢) توضح جهود المظفر قطز في قتال التتار.
(٣) تشرح نتائج موقعة عين جالوت.

الغزو المغولى وسقوط الخلافة العباسية:

المغولُ شَعْبٌ من الجنس الأصفر، كانوا يسكنون فى الجهات الشمالية من بلاد الصين حول بحيرة بيسكال، وتعرف تلك المناطق باسم منغوليا، التى تمتد من أواسط آسيا جنوبى سيبيريا، وشمال التبت وغربى منشوريا، وشرقى التركستان بين جبال التاى غرباً، وجبال جنجان شرقاً.

كان المغول قبائل رُحَّل يعيشون على تربية الخيل والماشية، فهم ينتقلون من مكان إلى آخر طلبا للعُشْبِ والماء، وقد فرضت عليهم البيئةُ الصحراويةُ عادات وتقاليد ترتبط بها، فهم فى حالة دائمة يبحثون عن المراعى، وفى حالة غزو دائم، وهم من الناحية الاقتصادية رعاة، وغزاة من الناحية السياسية، ومقاتلين من الناحية التاريخية، فحاجة المغول إلى المراعى والمحافظة عليها، احتاجت منهم إلى قيامِ نظامٍ حربيٍ ثابتٍ يقوم على ما يمارسهالرعاة من التدريب المستمر مع ركوب الخيل من أجل القتال والغزو، وأوجدت فيهم قوة الاحتمال والصبر على التعب، فجعلت من المغول جنديا بارعاً قادراً على المبادرة على الهجوم، فخطتهم الحربية تقوم على الهجوم المفاجئ والارتداد السريع (١)، وهم بذلك يسعون إلى الفائدة السريعة التى لا تحتاج إلى جهد وعناء، مما جعلهم يدمرون المظاهر الحضارية، فقاموا بهدم المبانى، وإحراق الكتب وقتل العلماء والمفكرين.

(١) الباز العرينى: المغول، ص١٢، ١٣.

ظهر المغول كدولة فى القرن الثانى عشر الميلادى، وكانت عاصمتهم قرة قورم، ويقوم النظام عند المغول على الخضوع التام والطاعة العمياء للخان الأعظم، والعقوبة الشديدة للمخالفين[١].

وكان المغول إذا ما اقتحموا مدينةً أو بلدةً بالقوة، يقتلون أهلَه دون تفرقة، وكان من عادتهم أن يجمعوا كتائب من الأسرى يضعونهم فى مقدمة الصفوف، ثم تبقى القوات المغولية خلفهم، فيقوم الأسرى بالأعمال الحربية العنيفة، فيتعرضون للقتل دون أن يجدوا طريقا للفرار، فإذا ما أَنهَكَ الأسرى جيش الأعداء، تقدم المغول بعد ذلك، فيَنْقَضّون على عدوهم، ويقضون عليه ببساطة[٢].

ويعتبر جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية (٥٥٠-٦٢٤هـ / ١١٥٠-١٢٢٧م) فقد استطاع أن يوحد قبائل المغول والتتار فى إمبراطورية واحدة، جعل قاعدتها وعاصمتها قرة قورم[٣]، وامتدت سياسته العدوانية التوسعية نحو الجنوب ثم نحو الغرب فاصطدم بالقوى الإسلامية ومن بينها الدولة الخوارزمية، فقاتلها عام ١٢٢٠م، ولقيت تلك البلاد من الفظائع والجرائم وألون الدمار والخراب الشئ الكثير.

فيديو (١) ظهور المغول

(١) إبراهيم العدوى: التاريخ الإسلامى، ص٣٨١.

(٢) فايد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص٣٤، ٣٥.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٤، ص٣١٠، ٣١٢.

توفى جنكيز خان عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م بعد أن حكم خمساً وعشرين سنة، بعد أن ترك لأولاده الأربعة إمبراطورية واسعة وأوصاهم بالوحدة والاتفاق.
وفى عام ١٢٥١م آلت زعامة المغول إلى هولاكو الذى قام بالزحف إلى همدان، فقضى على طائفة الإساعيلية فيها، واستسلمت له قلعة الموت فى كانون أول سنة ١٢٥٦م، وأراق كل ما يتعلق بعقائد الإسماعيلية[١].
وكان يتولى الخلافة العباسية فى بغداد عند قدوم هولاكو المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ / ١٢٤٢-١٢٥٨م) وهو الخليفة السابع والثلاثون من الخلفاء العباسيين، الذى أحاط نفسه بكل مظاهر العظمة، وقد اشتدت العداوة فى بلاطه بين وزيره الشيعى مؤيد الدين بن العلقمى، وكاتبه السُّنِّي مجاهدالدين أيبك الدوادار، الذى كان يَلقى التأييد والمساندة من ولى العهد أبى بكر ابن الخليفة، وكانت بغداد حصينة جداً، وباستطاعة الخليفة حشد ما يزيد على مائة ألف مقاتل عند توفير الثقة فى الأمراء والقادة، ونظرا لعدم الثقة أشار عليه الوزير العلقمى بتخفيض الجيش إلى الخُمْس.

شكل (٥١) المغول

(١) الباز العرينى: المغول، ص٢١١.

وساعد فى سوء الأحوال عند اقتراب الكارثة، وقوعُ فتنٍ ومنازعاتٍ داخليةٍ بين عناصر أفراد المجتمع من أهل السُّنَّة والشيعة والمسيحيين واليهود، ولعل أبرزها اندلاع الفتنة بين السُّنَّةِ والشيعة، ووقوف ولى العهد ضد الشيعة، مما أدى إلى نهب الكرخ حيث يقطن الشيعة (٦٥٥هـ / ١٢٥٧م)[١].

أرسل هولاكو إلى الخليفة العباسى المستعصم بالله كتاباً يعاتبه فيه على عدم تقديم الجند له أثناء محاربة الحشاشين، ثم طلب إليه:

١- أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق، ويُسَلِّمَ البلاد لابنه.

٢- أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه، والدويدار يحملان رسالته.

وختم هولاكو كتابه بالتهديد والوعيد: «إذا استمع الخليفة لهذا النصح تجنب حقده عليه، وإلا عَرَّضَ جيوشه للهزيمة أمام جيوش المغول التى قهرت جيوش خوارزم وإيران»[٢].

رَدَّ الخليفة على تهديد هولاكو بكتابٍ بعثه مع شرف الدين بن الجوزى، يدعوه فيه إلى الابتعاد عن الغرور، والعودة إلى بلاده منغوليا، ومما جاء فى الرد: «قد جعلت نفسك فوق العالمِ أجمع، وظننت أن أوامرك هى أوامر القضاء، كيف تطلب منى طلباً لا تستطيع تنفيذه؟ أيخيل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك، وشجاعتك ستأسر نجماً من النجوم؟». ثم أخذ الخليفة يُبَيِّنَ مكانة الخلافة: «إن ملايينَ من الفرسان والرجال على استعدادٍ للقتال، وهم رهن إشارتى، حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر». ثم ختم كتابه: «فما بالك بخنادق رعيتى وحصونهم؟ فاسلك طريق الود وعد إلى خرسان، وإن كنت تريد الحرب، فلا تتوان لحظة، ولا تعتذر إذا عزمت، إن لى ألوفاً مؤلفةً من الفرسان والرجالة على أتم استعداد لخوض غمار الحرب»[٣].

ولما استلم هولاكو الرسالة أبدى امتعاضه، ورد على الخليفة: بأنه مصممٌ على الحرب، وأنه قادم، وأنه منتصرٌ لا محالة.

استشار الخليفة مستشاريه، فأشار عليه وزيره ابن العلقمى باسترضاء هولاكو عن طريق تقديم الاعتذار ودَفْعِ إليه أثمن النفائس[٤]، وقد مال الخليفة للأخذ بهذا

---

(١) أبوالفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج٣، ص١٩٣.

(٢) رشيدالدين: جامع التواريخ، مجلد ٢، ج١، ص٢٦٨.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٦٩، ٢٧٠.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٧١.

الرأى، ولكن مجاهدالدين الداويدار الذى استمال بعض الأمراء إليه، وبعثوا إلى الخليفة برسالةٍ يقولون فيها إن رأى ابن العلقمى يُعَرِّضُ البلاد إلى الهلاك على أيدى الغول، وتعهدوا له بأخذ الحيطة لدرء خطر المغول[١].

وقد أدى تبادل المراسلات بين هولاكو والخليفة المستعصم إلى اتساع الهوة وجعل الحروب حتمية بين الطرفين.

ولما تأكد هولاكو أنه قد أصبح فى استطاعته الاستيلاء على بغداد، أقدم على غزو العراق، وتطبيق خطته الحربية التى تقضى بمحاصرة المدينة بجيوشه من جميع النواحى، فأرسل أحد قواده «باجو» لمهاجمة بغداد من الجهة الغربية، وسار هو على رأسِ فريقٍ من الجيش لمحاصرتها من الناحية الشرقية، وبصحبته كثير من أمراء المسلمين من أمثال أبى سعد زكى أتابك شيراز، وبدرالدين لؤلؤ أتابك الموصل، وسكرتيره الخاص عطا ملك الجوينى، ونصيرالدين الطوسى الفلكى والحكيم المشهور[٢].

أمر هولاكو باجو بالإسراع بعبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من ناحية الغرب، وتمكنت قوات باجو من عبور النهر حيث دارت الحرب بين الفريقين، ولكن الهزيمة حلت بالجيش العباسى فى العاشر من المحرم سنة ٦٥٦هـ. واستولى باجو وجنده على الجانب الغربى من بغداد، ونزلوا فى أحياء المدينة على شاطئ نهر دجلة وسيطروا على جميع أجزائها.

استغل هولاكو انشغال الجيش العباسى من الناحية الغربية، وهاجم المدينة من الجهة الشرقية بجيش بلغ مائتى ألف مقاتل[٣]، بينما كان لا يزيد عسكر الخليفة على ثلاثين ألفا بقيادة مجاهدالدين أيبك، والتقى عسكر الخليفة مع عسكر المغول، فكانت الغلبة لعسكر الخليفة بادئ الأمر، ثم انقلبت الصورة بانتصار المغول، وقام المعسكر فى الرابع من شهر محرم من سنة ٦٥٦هـ حتى التاسع عشر من شهر محرم حيث شاهد الناس رايات المغول فى بغداد، حيث أقدم المغول على القتل والنهب والتمثيل العظيم ما يُعْظَم سماعه، فقرر الخليفة تسليم المدينة، فقام الخليفة بإرسال الكثير من الهدايا الثمينة مُعْلِنًا رضاه بالتسليم ووقف القتال، ولم

(١) رشيدالدين: جامع التواريخ، مجلد٢ ، ج١، ص٢٦٨.

(٢) براون: تاريخ الأدب فى إيران، ج٢، ص٢٨٣؛ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٥٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، ص٢٠٠.

تمض على ذلك بضعة أيام حتى خُدِعَ المغول، فقام الخليفة بملاقاة هولاكو وكان بصحبته أولاده الثلاثة وهم ولده الأكبر أبوالعباس أحمد، وولده الأوسط أبوالفضائل عبدالرحمن، وولده الأصغر أبوالمناقب مبارك، ولما مَثُلَ الخليفة بين يدى هولاكو، أحضر لهولاكو كثيراً من الجواهر والنفائس والسبائك الذهبية، ثم طلب هولاكو من الخليفة أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم، فأنشد الخليفة رسولاً من قِبَلِه ينادى الناس بأن يلقوا السلام ويخرجوا من الأسوار، غير أنهم لم يكادوا يُلَبُّون طلبه، حتى أمر هولاكو جنده فانقضوا عليهم وقتلوهم شر قتلة، وأخذ المغول يجردون القصور من التحف النادرة، واتلفوا عدداً كبيراً من الكتب القيمة فى مكتباتها، وأهلكوا كثيراً من رجال العِلم [1].

فيديو (٢) غزو هولاكو للعراق

(١) بروان: تاريخ الأدب فى إيران، ص٥٨٦.

وأعمل المغول السيف فى رقاب أهل بغداد أربعين يوماً، سلبوا فيها أموالهم، وأهلكوا كثيراً من رجال العِلم، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والمدارس، وأصبحت بغداد قاعاً صفصفاً، ليس بها إلا فئةً قليلةً مشردةَ الأذهان، وكان القتلى فى الطرقات كأنها التلال، وقدر السبكى القتلى بتسعمائة ألف[١].

وانتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة وابنيه أبى العباس أحمد وأبى الفضائل عبدالرحمن، وأَسْرِ ابنه الأصغر مبارك وأخوته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم[٢].

وبسقوط بغداد زالت الدولة العباسية، وزالت معها الخلافة العباسية كذلك، فانتشرت الفوضى والاضطرابات فى العراق وبلاد الشام، مما أدى إلى تدهور الشرق سياسياً وعلمياً وثقافياً.

شكل (٥٢) مهاجمة هولاكو لمدينة بغداد

(١) السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، ص١١٥.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٦١.

زحف هولاكو من بغداد إلى الشام ماراً بالموصل وحران والرها، فأعمل السيف بالسكان، ثم توجه إلى حلب فاستولى عليها، ومنها توجه إلى دمشق التى سقطت بيده.

وكان يحكم مصر حينئذ على بن المعز أيبك التركمانى، وكان صغير السن، وكان الحاكم الفعلى سيف الدين قُطز نائباً له، ولما كان قُطز يريد الخروج للجهاد والدفاع عن بلاد الإسلام بقتال المغول، رأى قطز أن ذلك لا يتسنى له والأحوال فى مصر على حالها حيث يحكم البلاد سلطانٌ صغير، لا يستطيع القيام بواجب الجهاد ضد العدو، فجمع قطز الأمراء والأعيان واستشارهم بعزل الملك المنصور على بن المعز أيبك، فوافقوا على ذلك، وبايعوه بالسلطة على البلاد.

وفى أوائل شهر كانون الثانى من عام ١٢٦٠م، وَجَّهَ هولاكو سفراءه إلى مصر، تطلب إلى السلطان قطز تسليم مصر، وهددهم وتوعدهم إن هم خالفوه، فاجتمع قطز بالأمراء للتشاور، فقرروا الجهاد ضد التتار بعد تردد عدد من الأمراء، فقال لهم قطز: «يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة المسلمين فى رقاب المتأخرين». ثم تكلم الأمراء المؤيدون، فلم يسع البقية المعارضة إلا الموافقة، وانفض الاجتماع، وكلٌ مجمع على قتال التتار، ثم أحضر قطز رسل هولاكو الأربعة وقطع رؤوسهم، وعلقها فى أماكن متعددة فى القاهرة.

وهكذا صمم الملك المظفر قُطز على قتال العدو والخروج لمواجهته، فأصدر أوامره بجمع الجيش والاستعداد للخروج للجهاد فى سبيل الله ونصرة دينه، وطالب الولاة «بازعاج الأجناد فى الخروج للسفر، ومن وجدوا أنه قد اختفى يُضرب بالمقارع»، ولما استكمل قُطز استعدادته ركب فى الليل، وحرك كوساته[1] «وقال: «أنا ألقى التتار بنفسى». فلما رأى الأمراء المعارضون والمترددون تصميم قطز وأتباعه، إنصاعوا له وساروا معه.

(١) القلقشندى: صبح الأعشى: ج٤، ص٤؛ الكوسات: هى صنوجات من نحاس تشبه الترس يدق أحدها بالآخر بإيقاع مخصوص، ومع ذلك طبول وهى تدق فى أوقات خاصة.

وسار الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى بمقدمة الجيش للاستطلاع، وكشف أخبار العدو حتى وصل غزة، حيث التقى بمقدمة الجيش المغولى بقيادة بيدار، فلما رأى طليعة المسلمين، أرسل إلى كتبغا فى بعلبك يخبره بتحركات المماليك ويطلب منه النجدة، حيث طلب منه كتبغا: «قف مكانك وانتظر». ولكن بيبرس لم يمهله، هاجمه وهزم التتار وطاردهم بيبرس حتى نهر العاصى، وقد كان لهذه المعركة أثرٌ كبيرٌ فى الروح المعنوية للمسلمين، فقد ارتفعت الروح المعنوية، وكَسرت حاجز الخوف عندهم، وأَكَّدَت لهم أن النصر من عند الله، يمنحه لعباده المخلصين.

أما بالنسبة لهولاكو، فقد عاد إلى بلاده بسبب موت مونكا خان حتى يكون قريباً من الأحداث فى بلاده، وترك قائده كتبغا مع قوة عسكرية حوالى ثلاثين ألف، وكان كتبغا قائدَ مقدمة جيش التتار، فلما عَلِمَ بما لحق بمقدمة جيشه فى غزة من الهزيمة، جمع التتار الذين كانوا قد تفرقوا فى بلاد الشام، وعزم على مهاجمة المسلمين، ولكنه عَرَضَ على الصليبيين فى إمارة عكا أن يحالفوه على قتال المسلمين، ولكن قُطُّزاً كان قد قطع عليه الطريق، فقد عرج عليهم أثناء مسيرته لقتال المغول على الصليبيين وهددهم، وَضَمِنَ حيادهم فى المعركة بين التتار والمسلمين.

شكل (٥٣) عودة هولاكو إلى بلاده

موقعة عين جالوت : ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م:

كانت مبادرة قُطُّز لقتال المغول ترجع إلى إيمانِه وعزمِه على الجهاد، لِمَا سمعه من كثرة المَنَاحَات والفجائع فى البلاد التى مروا بها، بعد أن قضوا على جميع الحرث والنسل، وأزهقوا الأرواح والأحياء، فهو لم يكن يهمه سوى الصُّلح أو الجلاء عن مصر أو القتال، أما الاحتمال الأول فهو سيؤدى إلى الذُّل والقتل فيما بعد، والاحتمال الثاني فإلى أين يتجه عن جلاء مصر، لذلك لم يجد أمامه سوى احتمال القتال والدفاع عن الإسلام والمسلمين.

تقدم المظفر قُطُّز متجهاً نحو يسان، فوقف بقوته فى عين جالوت الواقعة غربى بيسان، حيث كان التتار، أَمَرَ السلطان قُطُّز جمع الأراء وقادة الجيس وحَضَّهم على القتال ورَغَّبَهُم فيه، وذَكَّرَهم بما لحق ببلاد الإسلام من القتل والدمار والحريق، وألح فى دعائه لهم بنصرة الإسلام والجهاد فى سبيل الله وخوفهم من عقاب الله إن هم ولوا الأدبار أمام عدوهم، تأثر القادة والجنود «فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد فى قتال التتار ودفعهم عن البلاد»[١].

وفى صباح الخامس والعشرين من شهر رمضان ٦٥٨هـ / أوائل أيلول ١٢٦٠م تقدم بيبرس البندقدارى بفرقة الكشافة لاستطلاع أخبار العدو ومناوشته، حتى يصل السلطان ببقية الجيش، وأخذ بيبرس يلتقى بطلائع التتار، ويناوشهم حتى اصطدمت طليعة المسلمين مع طليعة التتار، واشتد القتال حتى انهزم العدو فى اللقاء الأول، والتقى الجمعان، وكان الوادى قد امتلأ بالناس من سكان القرى والضياع، فكثر صياحهم ودعاؤهم بالنصر، ودقت طبول الحرب واشتد القتال، وتقاتلا قتالاً شديداً لم يُرَ مثله حتى قُتِلَ من الطائفتين جماعةً كثيرة[٢]، واشتد القتال، فألقى قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: «واإسلاماه». فاشتدت عزائم المسلمين، وحملوا على العدو حملةً صادقةً، فاشتد القتال، مما حدا بكتبغا ليقاتل بنفسه، وكان بيبرس قد نصب كمينا للتتار فى المنطقة، وعند لقاء العدو بطليعة المسلمين، انكرت هذه الطليعة وانسحبت فتشجع المغول وتعقبوا المسلمين وقتلوا بعضهم، وعندما وصلوا إلى الكمين الذى كان أعده بيبرس، فانقضت عليهم القوات الإسلامية من ثلاث جهات، استبسلت القوات الإسلامية فى قتال العدو، وقاتلوهم

(١) المقريزى: السلوك،ج١، ق٢، ص٤٣٠.

(٢) أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٩.

قتالاً مستميتاً من الفجر حتى منتصف النهار، ثم تعذرت المقاومة على جيش المغول ولحقت بهم الهزيمة آخر الأمر [1].

وهكذا انهزم المغول شرَّ هزيمة، وَوَلَّوُا الأدبار، وقتل مقدمهم كتبغا بيد الأمير

شكل (٥٤) معركة عين جالوت

(١) رشيدالدين: جامع التواريخ، ج١، ص٣١٤.

جمال الدين أقوش الشمى، وانهزم التتار إلى الجبل المجاور بادئ الأمر، فتبعهم جنود المسلمين، فقتلوا معظمهم، وأَسَروا آخرون [١].

وتابعت الفرق الإسلامية التتار المنهزمين حتى حمص، فألقوا متاعهم ومعداتهم، وتخطفهم المسلمون، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأقبلت جموع العساكر الإسلامية، وقد امتلأت أيديهم بأسلاب وغنائم المغول، وتتبع الأمير فلول التتار حتى حدود الفرات [٢].

ويعتبر هذا الانتصار انتصاراً للحضارة، وانقاذاً للمدنية من هؤلاء الهمج، الذين لَو لَمْ تَدُرْ عليهم الدائرة، لامتد ضررهم إلى العالَم والإنسانية [٣].

وكان لهذا النصرُ أبلغ الأثر على المسلمين، ما حدا بالظاهر بيبرس عندما آلت إليه السلطة إقامة نصبٌ تذكارىٌ تخليداً لذكرى انتصار المسلمين على التتار وسماه «مشهد النصر» [٤].

فيديو (٣) إنهزام المغول في موقعة عين جالوت

(١) المقريزى: السلوك، ج١، ق١، ص٤٣٠، ٤٣١؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٣، ص١٢٢، ١٢٣؛ أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٩.

(٢) المقريزى: المصدر السابق، ص٤٣١.

(٣) أحمد شلبى: التاريخ الإسلامى والحضارة، ص١٩٨.

(٤) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص٣٣.

نتائج موقعة عين جالوت:

فقد ثُبِّتَتَ دعائم دولة المماليك فى مصر والشام، كما كانت نهاية الدولة الأيوبية، كما أنها أنقذت بلاد الشام من الاحتلال المغولى، وتحول القوة الإسلامية من الدفاع إلى الهجوم، وسَحْقِ قوى العدو ومطاردته، بحيث تحطمت قواتهم بعد هذه الهزيمة التى لم تقع مثلها [١]، كما عَجَّلَت موقعة عين جالوت بزوال ما تبقى من الإمارات الصليبية[٢].

تقدم المظفر قُطُز حتى وصل دمشق، فدخلها ورَتَّب أمور بلاد الشام، وقرر الولاة والنواب، وعادت بلاد الشام إلى حُكم الإسلام، ودخلت تحت حكم دولة المماليك منذ ذلك الحين، والمظفر قطز هو أول من مَلَكَ البلاد الشامية واسترجعها من ملوك التتار، وأعاد المظفر الطمأنينة للبلاد والعباد، ثم شَرَعَ فى العودة إلى الديار المصرية، وغادر دمشق يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شوال عام ٦٥٨هـ / تشرين الأول ١٢٦٠م، وأثناء محاولته لصيد أرنبٍ فى الصحراء تم اغتياله وقتله، فتولى السلطة الظاهر بيبرس.

لم تنته الحروب بين المغول والمماليك، بل وقعت بينهم عدة معارك، ففى عهد السلطان قلاوون هاجم المغول حمص، فأوقع بهم هزيمةً نكراء، وفى عهد الناصر هاجموا دمشق واحتلوها، فالتقى بهم بالقرب من دمشق وهزمهم وأَسَرَ منهم عشرة آلاف جندى، وعَقَدَ معهم صلحًا سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م[٣].

وفى مطلع القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى، هاجم تيمورلنك بغداد وسار إلى حلب وحمص وبعلبك ودمشق، ثم اتجه إلى آسيا الصغرى فالتقى بالعثمانيين، وأسر بايزيد الأول سنة ١٤٠٢م، إلا أنه مات سنة ١٤٠٤م، ودَبَّ الخوف بين خلفائه، مما أتاح للمماليك استعادة شمال بلاد الشام.

وهكذا قُدّرَ للعالَم الإسلامى أن يواجه الغزاة مرةً أخرى، ولكن هؤلاء الغزاة كانوا قساة القلوبِ، متوحشين، دَمَّروا أكبرَ مدينة فى العالم، وقضوا على مظاهر الحضارة فى المشرق الإسلامى، وكانت نهايتهم فى عين جالوت، وكأن فلسطين وأرضها قد أُعِدَّت لتكونَ مقبرةً للغزاة الطامعين.

---

(١) فايد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص٥٥، ٥٦.

(٢) الباز العرينى: المغول، ص٢٦٤.

(٣) المقريزى: السلوك، قسم ٣، ص٩٣٨-٩٤٠.

تدريبات الفصل الخامس

حدد صواب أو خطأ العبارة التالية:

(١) هولاكو هو مؤسس الإمبراطورية المغولية:

- ○ صواب
- ○ خطأ

(٢) ظهر المغول كدولة في القرن الثاني عشر الميلادي وكانت عاصمتهم قرة قورم:

- ○ صواب
- ○ خطأ

اختر الإجابة الصحيحة مما يلي:

(٣) عندما قدم هولاكو إلى بغداد كان يتولى الخلافة العباسية:

- ○ المستعصم بالله
- ○ المُعتصم
- ○ المأمون

(٤) وقعت معركة عين جالوت:

- ○ عام ٧٨٠ هـ
- ○ عام ٦٥٨ هـ
- ○ عام ٨١٣ هـ

المصادر والمراجع

١- ابن الأثير: على بن الكرم، محمد بن عبدالكريم الشيبانى (ت٦٣٠هـ / ١٢٣٣م)
- الكامل فى التاريخ: بيروت، دار الكتاب العربى، سنة ١٩٦٧، بولاق، ١٢٧٤هـ، دار صادر، سنة ١٩٧٩.
- الباهر فى تاريخ الدولة الأتابكية: تحقيق عبدالقادر طليمات القاهرة، سنة ١٩٦٣.
٢- ابن أبى أصيبعة: «موفق الدين أبوالعباس أحمد بن القاسم الخزرجى (ت٦٦٧هـ / ١٢٧٠م):
- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، بيروت: دار الفكر، القاهرة، سنة ١٣٧٦هـ / ١٣٠٠هـ.
٣- أرنولد، سيرتوماس:
- الدعوة إلى الإسلام: ترجمة حسن إبراهيم حسن وزملاؤه، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧.
٤- أحمد، حمدى حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول. القاهرة: دار الفكر العربى، سنة ١٩٤٩.
- الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى. القاهرة: دار الفكر العربى، سنة ١٩٥٠.
٥- أمين، حسين: تاريخ العراق فى العصر السلجوقى. بغداد: مطبعة الارشاد: سنة ١٩٦٥.
٦- الأصفهانى، عمادالدين: تاريخ دولة سلجوق. بيروت: دار الآفاق، ط٣، سنة ١٩٨٠.
٧- بركلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه فارس، منير بعلبكى. بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، سنة ١٩٦٥.
٨- برجاوى، سعيد أحمد: الحروب الصليبية فى المشرق. بيروت: دار الآفاق، سنة ١٩٨٤.
٩- بيضون، د.إبراهيم: التاريخ السياسى للدولة العباسية.
١٠- أبوبدر، شاكر أحمد: الحروب الصليبية والأسرة الزنكية. بيروت: الجامعة اللبنانية، سنة ١٩٧٢
١١- البيطار، أمينة: تاريخ العصر الأيوبى. دمشق: جامعة دمشق، سنة ١٩٨٢.
١٢- بروج، أنتونى: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة أحمد غسان سبانو، دمشق: دار قتيبة، سنة ١٩٨٥.
١٣- التكريتى، محمود ياسين: الأيوبيون فى شمال الشام والجزيرة، بغداد: وزارة الثقافة، سنة ١٩٨١.
١٤- التميمى، رفيق: الحروب الصليبية. يافا: دار الظاهر، سنة ١٩٤٧.

١٥- الجميلى، رشيد: دولة الأتابكة فى الموصل. بيروت: دار النهضة، سنة ١٩٧٠.
١٦- حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٧٣.
١٧- حتى، د.فيليب: تاريخ العرب المطول. بيروت: دار الكشاف، ط سنة ١٩٥٣، طـ٤ سنة ١٩٦٥.
١٨- حيدر، محمد على: الدويلات الإسلامية فى المشرق. القاهرة: عالَم الكتب، سنة ١٩٧٤.
١٩- حسنين، عبدالمنعم محمد: دولة السلاجقة. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، سنة ١٩٧٥.
٢٠- حبش، د.حسن: نورالدين والصليبيون. القاهرة، سنة ١٩٤٨.
٢١- خليل، د.عمادالدين: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى. الرياض: مكتبة المعارف، سنة ١٩٨١.
٢٢- ابن خلكان، شمس الدين، أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ / ١٣٢٤م):
وفيات الأعيان وأبناء الزمان، (تحقيق د. إحسام عباس) بيروت: ومطبعة القاهرة، وبولاق.
٢٣- خليفة، حسن: الدولة العباسية، قيامها وسقوطها. القاهرة: المكتبة الحديثة، سنة (بلا).
٢٤- الدورى، د.عبدالعزيز: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة. بغداد، سنة ١٩٤٥.
٢٥- دونالرولبر: إيران ماضيها وحاضرها. ترجمة: عبدالمنعم حسين.
٢٦- الدهان، د.محمد سامى: الناصر صلاح الدين الأيوبى. القاهرة: الدار المصرية، سنة ١٩٦٥.
٢٧- زكار، د.سهيل: الحروب الصليبية (مجلد، شهود عيان)، دمشق: دار حسان، سنة ١٩٨٤.
- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية. بيروت: مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٧٢.
٢٨- سيد الأهل، عبدالعزيز: أيام صلاح الدين. بيروت: المكتب التجاري، سنة ١٩٦١.
٢٩- سرور، د.جمال الدين: تاريخ الحضارة الإسلامية. القاهرة: دار الفكر العربي.
٣٠- سعيد، أحمد: تاريخ الدول الإسلامية والأسرة الحاكمة. القاهرة (بلا).
٣١- السيوطى، جلال الدين بن عبدالرحمن (ت٩١١هـ / ١٥٠٥م): تاريخ الخلفاء، تحقيق محى الدين عبدالحميد. القاهرة: المكتبة التجارية، سنة ١٩٦٩.

المصادر والمراجع

٣٢- سميل، د. سى: الحروب الصليبية (ترجمة سامى هاشم). بيروت: المؤسسة العربية، سنة ١٩٨٢.
٣٣- شلبى، د.أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط٧، سنة ١٩٨١.
٣٤- شعبان، د.محمد عبدالحى: الدولة العباسية والفاطميون. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، سنة ١٩٨١.
٣٥- ابن شداد، كمال عزالدين عبدالله بن محمد (ت٦٣٢هـ / ١٢٣٤م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. (سيرة صلاح الدين الأيوبى)
٣٦- أبوشامة: عبدالرحمن إسماعيل. كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النزرية والصلاحية، تحقيق د.محمد حلمى أحمد، القاهرة، سنة ١٩٥٦.
٣٧- صبرة، عفاف سيد: دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية. القاهرة: دار الكتاب الجامعى، سنة ١٩٨٥.
٣٨- صفوط، د.أنطون خيل: الدولة المملوكة، بيروت: دار الحداثة، سنة ١٩٨٠.
٣٩- ابن طباطبا، محمد بن على (ت٧٠٩هـ / ١٣٠٩م): الفخرى فى الآداب السلطانية، القاهرة، سنة ١٣٢٦هـ، بيروت: دار صادر ١٣٨٩هـ / ١٩٦٦م.
٤٠- الطبرى، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك، وتاريخ الطبرى. دار المعارف، سنة ١٩٦٠- ١٩١٠م.
٤١- عاشور، سعيد عبدالفتاح: الحركة الصليبية (مجلدان) القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، سنة ١٩٧١.
- الناصر صلاح الدين (سلسلة أَعلام العرب عدد ٤١) القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩٦٥.
٤٢- عاشور، د.فايد حماد: جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، بيروت: مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٨١م.
٤٣- ابن العديم، كمال الدين أبى القاسم عمر أحمد (ت٦٦٠هـ / ١٢٦١م)
- زبدة الحلب، جـ٢، ٣، تحقيق د.سامى الدهان، بيروت، سنة ١٩٦٨.
٤٤- العيينى، أبونصر محمد بن عبدالجبار (٤٢٨هـ /١٣٦٠م):
- تاريخ اليمنى، القاهرة، سنة ١٢٨٦هـ.
٤٥- العرينى، سيد باز: المغول. بيروت: دار النهضة، سنة ١٩٨٨.
٤٦- عبدالرؤوف، عصام الدين: الدولة المستقلة فى الشرق. القاهرة: دار الفكر، سنة ١٩٧٠
٤٧- العبود، نافع توفيق: الدولة الخوارزمية. بغداد: مطبعة جامعة بغداد، سنة ١٩٧٨.

٤٨- الغامدى، سعيد بن محمد: صلاح الدين والأيوبيين: مكة المكرمة، المكتبة الفيصلية، سنة ١٩٨٥.
٤٩- غايبة، د.عبدالكريم: بيروت والأتراك. دمشق، جامعة دمشق، سنة ١٩٦٠.
٥٠- القزوينى: عبدالله زكريا الأنصارى (ت٦٢٨هـ / ١٢٨٣م):
- آثار البلاد فى أخبار العباد. جوتيمين، سنة ١٨٩٨، بيروت، دار صادر، سنة (بلا).
٥١- ابن كثير، عمادالدين إسماعيل (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م):
- البداية والنهاية. القاهرة: سنة ١٩٣٩، بيروت: مكتبة المعارف، سنة ١٩٧٧.
٥٢- لوبون، غوستاف لوبون: حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتر). القاهرى: الباب الحلبى، ج٤١، سنة ١٩٦٤.
٥٣- متز، آدم: الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبدالهادى أبوريدة. بيروت: دار الكتاب اللبنانى، ط٤، سنة ١٩٦٧.
٥٤- أبوالمحاسن، جمال الدين أبوالمحاسن ابن تغرى بردى (ت٧٨٤هـ / ١٤٧٠م): النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. القاهرة: وزارة الثقافة، سنة ١٩٦٤.
٥٥- المعضيدى، خاشع. دسولى عبدالحميد، دريد عبدالقادر نورى: الوطن العربى والغزو الصليبى، بغداد، وزارة التعليم العالى، سنة ١٩٨٨.
٥٦- المسعودى، أبوالحسن على (ت٢٤٦هـ / ٩٥٥م): مروج الذهب ومعادن الجوهر. بيروت: دار الفكر، ط٥، سنة ١٩٧٣، القاهرة: ١٣٤٦هـ.
٥٧- ابن مسكويه، أبوعلى بن محمد (ت٤٢١هـ / ١٠٣٠م): تجارب الأمم: تحقيق أحمد روز، القاهرة: سنة ١٩١٥.
٥٨- مشكور، محمد جواد: السلاجقة فى آسيا الصغرى. طهران، سنة ١٣٥٠هـ.
٥٩- النبراوى، د.فتحية: العلاقة السياسية الإسلامية وصراع القوى فى العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة وهبة، سنة ١٩٨٢.
٦٠- ابن النديم، محمد بن إسحق (ت٣٧٨هـ / ٩٨٨م): الفهرست، بيروت: دار المعرفة، سنة ١٩٧٨.
٦١- النرشخى، أبوبكر محمد بن جعفر (ت٣٤٨هـ /٩٥٩م): تاريخ بخارى عَرَّبَه عن الفارسية: د. أمين بدوى، نصرالله الطراز، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥.
٦٢- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٥٧هـ / ١٢٩٧م): مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق: د.جمال الشيال، القاهرة: سنة ١٩٥٣، ١٩٥٧.
٦٣- ياقوت، شهاب الدين أبوعبدالله الحموى الرومى (ت٧٢٦هـ / ١٢٣٩م): معجم البلدان، القاهرة، سنة ١٩٠٦، بيروت: دار الكتاب العربى، سنة ١٩٨٠.

عن المؤلف

الأستاذ الدكتور صلاح سليم طايع أحمد أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية وعميد كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي

دكتوراه في التاريخ الإسلامي من كلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي ٢٠٠٤ م تقدير مرتبة الشرف الأولي.

ماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي ٢٠٠١ م تقدير امتياز.

ليسانس الآداب قسم التاريخ الإسلامي كلية الآداب بقنا جامعة أسيوط ١٩٩٠ م تقدير جيد جداً.

في هذا الكتاب:

يقدم هذا الكتاب دراسة عن الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي عبر عصورها المختلفة، ويعرض تاريخ عدد من هذه الدويلات منذ ميلاد دولهم، وأهم الأحداث الداخلية والخارجية، وعلاقتهم بالخلافة العباسية.

للتواصل مع المؤلف

الموبايل: ٠١٠٠٦١٥٢٢٣٦

البريد الإلكتروني: Drsalah_saleem@yahoo.com